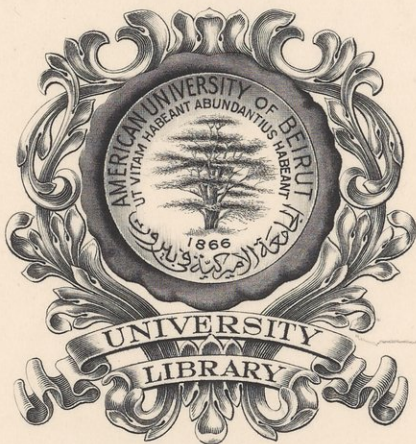




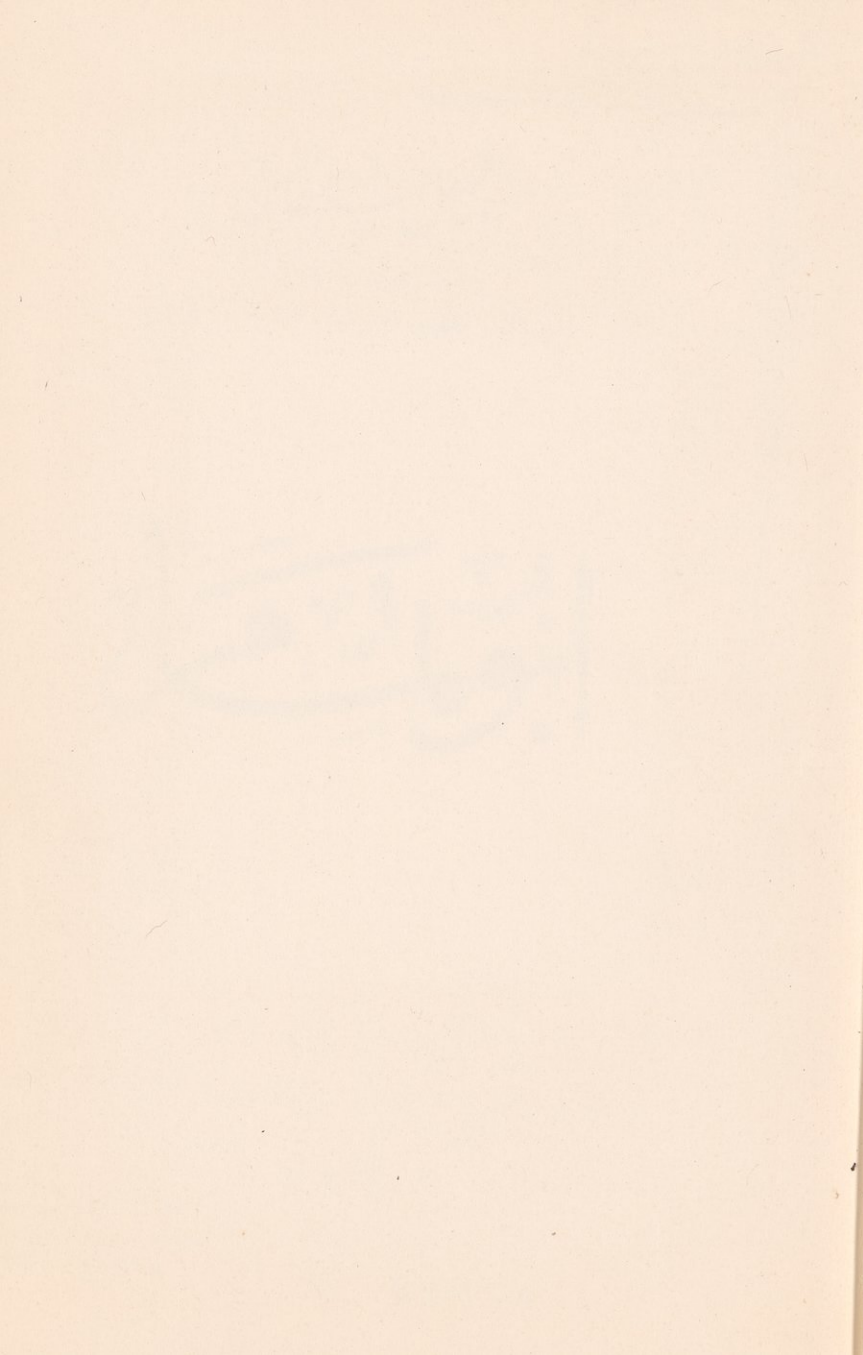
A. U. B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



FOA





جميل سلطان

دكتور في الآداب

عضو المجمع اللغوي للدراسات السامية في باريس

أبو حنيفة

Cat. aug. 1950

۸۰۸۱۳۱۴

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

مكتبة
الشيخ
المرجع
الطهراني



مکتبہ مجلس شورای اسلامی

۱۳۰۶ - ۱۳۶۱

۵۳۴۵۳

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْحَقَّ حَتَّى يَكُونَ الشُّغْلُ وَالْهُوَى ؛
وَزَيْنْ أَخْلَاقَنَا بِالصِّدْقِ حَتَّى يَكُونَ الْغَايَةَ وَالْمُنَى ؛ وَجَنِّبْنَا
الضَّلَالَةَ فَلَا نَذِلَّ بِهَا وَلَا نَخْزِي ؛ وَاعْصِمْنَا مِنَ الْجَهَالَةِ فَلَا نَضِلَّ
بِهَا وَلَا نَزْدِي .

درس ۹ طبری ۹ حرق صفح

اللَّهُمَّ زَكِّ نَفُوسَنَا فَأَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا ؛ وَأَلْهَمْنَا رُشْدَهَا
فَأَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا ؛ وَافْتَحْ بَصَائِرَنَا عَلَى أَنْوَارِ مَشَاكِلِكَ ؛ وَسَدِّدْ
خَطَايَا فِي سَبِيلِ مَرْضَاتِكَ ؛ حَتَّى لَا نَرَى إِلَّا الْحَقَّ ؛ وَلَا نَلْزِمَ
إِلَّا الصِّدْقَ .

وَنَعُوذُ بِكَ اللَّهُمَّ أَنْ نَدْعِيَ الْعِصْمَةَ مِنْ زَلَلٍ ، فِي مَا تَفْعَلُ ؛
أَوْ الْبَرَاءَةَ مِنْ خَطَلٍ ، فِي مَا تَقُولُ ؛ فَأَنْتَ أَعْلَمُ بِنَا مِينًا ؛ وَأَعْرِفُ
بِمَا أَعْلَنَّا وَمَا أَسْرَرْنَا ، وَمَا قَدَّمْنَا وَمَا أَخَّرْنَا ، وَمَا ابْتَغَيْنَا مِنْ
خَيْرٍ شَامِلٍ بَيْنَ يَدَيْكَ ، وَمَا رَجَوْنَا مِنْ فَضْلٍ كَامِلٍ لَدَيْكَ .
فَقُولْ اللَّهُمَّ بِالْمَغْفِرَةِ أَسْوَأَنَا ؛ وَبِالْإِحْسَانِ أَخْطَاؤُنَا ؛ وَتَقَبَّلْ
صَنِيعَتَنَا بِمَا تَحِبُّ وَتَرْضَى ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

أبو تمام

١ - الرجل

قصة حياته ، نشأته ، أخباره ، رحلاته ، آخر المطاف ، صفاته وأخلاقه ، لهوه ، دينه ، مذهبه السياسي ، أسرته : ٦ - ١٧

٢ - الشاعر

مكانته الأدبية ، ثقته بنفسه ، ثقافته ، اختراعه للمعاني : ١٨ - ٢٤
الصنعة في الأدب : ٢٥ - ٢٨ ؛ أساتذته ، عصره وموقعه من بقية الشعراء : ٢٨ - ٣١

فن أبي تمام : المقابلة والطباق ، التديج ، التجسيم والنشخيص ، الغموض والتأويل ، الجناس ، المجازات والكنايات ، آثار الثقافة الواسعة ، نواح متعددة من فنه : ٣٢ - ٥٣
آفاق عبقريته : المديح ، الرثاء ، الوصف ، الحكمة ، الفخر ، الغزل ، الهجاء والعتاب ، الرجعة إلى الله تعالى : ٥٤ - ٧٤
قواعده في النظم ، محاسبته بمقياسه : ٧٥ - ٨٠

آراء الأدباء فيه : ٨١ - ٨٤ ؛ استاذيته ، الموازنة بينه وبين البحري ، والمتني ؛ ٨٥ - ٨٩
اغارة الأدباء على شعره : ٩٠ - ٩٦ ؛ اغارته على الشعراء : ٩٧ - ١٠٢ ؛ معائب شعره ١٠٣ - ١١٢ ، ديوانه وحماسه : ١١٣ - ١١٥

أبو تمام في مطور

طائي من جاسم ، عاش في دمشق ومصر ، وطوّف في البلاد الإسلامية ،
ومات في الموصل .

واسع الثقافة ، نافذ الذكاء ، رفيع المسكنة ، جم البر ، كثير الحساد .
له أوفر نصيب من الصنعة كالمقابلة والتجنيس والاستعارة وتجسيم
المعاني وتشخيصها .

قد تغمض معانيه ويغرب ، فيخرج عن مألوف العرب ، وعمّا ينصح به
أن يلتزم .

مجود لا ريب في عبقريته ، رغم كثرة ما سقط فيه .
فتح للشعراء سبلاً للمعاني والصنعة فانتفعوا بها كما انتفع من سواه .
هو في المقدمة من شعرائنا الخالدين .

حبیب بن اُرس

٩

قصة حياته :

من مآثر طيء في الجاهلية والإسلام ثلاثة رجال : كل واحد منهم عبقرى خالد في ناحيته : حاتم في كرمه ، وداد بن نصير في زهده ، وأبو تمام في شعره ؛ ولكن طائفة من المتحدثين عن الشاعر لا يريدون أن تصح نسبته إلى طيء ، فتكون عربية خالصة ، وإنما يذكرون أنه ينتمي إلى أصل رومي ، وأن أباه « أوساً » كان في أصله (تدوس) أو (تيودوس) وهو نصراني من أهل حاسم : قرية من قرى حوران تابعة لدمشق ، بينهما ثمانية فراسخ ، وأن (تيودوس) هذا كان عطاراً ، أو خمّاراً ، وأنه قد لفتت للشاعر نسبة إلى طيء ، ليس فيمن ذكر فيها من اسمه مسعود . وهذا باطل ممن عمله ، ولو كان نسبة صحيحاً لما جاز أن يلحق طيئاً بشرة أبناء (١) . وقالوا إن بيت أبي تمام :

إن كان مسعود سقى أطالهم سيل الشؤون فلست من مسعود

لا يدل على كونه من مسعود ، وهو أحد الأجداد الستة الذين لم يذكروا في النسب ؛ ذلك ما قالوا .

على أنا نرى في قوله « فلست من مسعود » دليلاً على أنه منه كما تقول « إن كان جدي فعل هذا فلست منه » وأنت في الواقع تنتسب إليه ؛ ولعل لهذا الاضطراب في النسبة سبباً يفسره كثرة حساد الشاعر ،

(١) ابن خلكان : ١٥٠/١

وما كان له من مرتبة لم تكن لسواه ، وقد بدى بالطعن في صحة نسبه من
أيامه ، فتهجاه بعضهم حياً وميتاً كمحمد بن بكر الموصلي في قوله :

أنت عندي عربي ال أصل ما فيك كلام
أنا ما ذنبي إن خا لثني فيك الأنام
وأنت منك سجايا نبطيات لئام
وقال فيه :

ويلك مَنْ دلائك في نسبة قلبك منها الدهر مذعور
لو ذكرت طاء على فرسخ أظلم في ناظرک النور
وقال آخر فيه وسماه حبيب بن أوشونا :

اذكر حبيب بن أوشونا ودعوته
فإن طياً إذا سُبُوا به جزعوا
مربع قومك ناقوس وشمعة

فاذكر مرابعهم فيها إذا ارتبعوا
جاء بنسبة يهودية جديدة للشاعر ، لأن الشمعة تكون لليهود حين
يجتمعون ويقرؤون ويصلون ؛ ودعاه بعضهم (أبا ناقص) بدلاً من أبي تمام
فقال (١) :

قد جاءني والمقال مختلف شعر أبي ناقص على بُعد
فكان كالسهم صاف عن سدّد القو ل وعن قصده وعن أمده

(١) أخبار الصولي : ٢٤٧

أمام هذا الاضطراب والحدق نرى أن نلتفت إلى شعر أبي تمام لنجد فيه
نسبه صريحاً ، فهو يتمدح بالعروبة والإسلام وخصالهما ، ولا يخفي شماته
باندحار الشرك وإذلال الروم ، ولو كان في نفسه شيء يريب لما أكثر من
هذه المعاني المسلمة العربية ، ونظرة بريئة في قصيدته عن عمورية ومدح
المعتصم ، تقفنا على جليلة عروبه وإسلامه كقوله :

٥
—
.

أَبْقَيْتَ جَدَّ بَنِي الْإِسْلَامِ فِي صُعْدِ

والمشركين ودارَ الشركِ في صَبِ

• • •

ولا اخدودُ وقد أدمين من خجل

أشهى إلى ناظري من خدّها الترب

• • •

أَبَقْتُ بَنِي الْأَصْفَرِ الْمَرَضِ كَأَسْمِهِمْ

صَفَرَ الوجوه وَجَبَّتْ أَوْجُهُ الْعَرَبِ

يضاف إلى هذا أن في المحققين الأولين من أثبت عروبه فقال
أبو بكر الصولي إنه « حبيب بن أوس الطائي صليبة » أي خالص النسب
إلى طيء .



نشأته :

ولد حبيب، على ما قال هو عن نفسه ، سنة ١٩٠ هـ (١) في جاسم، ولكن نشأته كانت في مصر إذ حمله أبوه إليها على فقر وخصاصة ، وترعرع في مجالس العلم والأدب من المساجد ، وهي يومئذ موئل العلماء ومبعث فضلتهم ، وسقى الماء بالجامع صغيراً ، وخدم حائكا هناك كما فعل من قبل في دمشق ، ولكن ذكاءه وعبقريته أثبتا عليه إلا أن يجول في مراتع الشعر والعلم ، وما هي إلا سنوات ضئيلة خمس يقضيها على تلك الحال من الطلب حتى يصبح شاعراً ماهرشاً ، معتداً بنفسه يهاجم شاعراً مصرياً هو يوسف السراج ويهجو ، ولا يفتر عن مجالسة أهل العلم والأدب ، حتى شهر أمره ، وعرف عند الولاة والأمرء ، ونال جوائزهم ، وأحلوه المراتب العالية ، وإذا هو يرتحل في المملكة الإسلامية ما بين مشرقها ومغربها : يند على المأمون مادحاً مكرماً ، ويستدعيه المعتصم مجلاً لقدره ، مقدرًا لنوعه ، وهو حيناً في مكة يحج البيت ، وطوراً في خراسان يمدح عبد الله بن طاهر بن الحسين ، وأنا في أرمينية عند خالد بن يزيد أو في الجبل عند محمد بن الهيثم ، ويزور نيسابور والموصل فهو أبداً أليف الأسفار ، مغرم بالرحلات ، مقدم عند العظماء ، يوسعونه إكراماً ، ويجودهم بفيض إلهامه ، حتى إذا أراد أن يصور نفسه لم يجد أبلغ من قوله :

بالشام أهلي ، وبغداد الهوى ، وأنا

بالرقتين ، وبالفنسطاط إخواني

(١) زجح أن تكون ولادته سنة ١٧٦ هـ لأنه مدح الحسن بن سهل بقصيدة صرح فيها أن عمره ٢٦ سنة ، والحسن كان وزيراً سنة ٢٠٢ (٢٠٢-٢٦=١٧٦) على أن ابنه روى أن أباه ولد سنة ١٨٨ (الصولي ٢٧٣)

وله في هذه الرحلات أخبار كثيرة وشؤون مختلفة تدل على عظيم مكانته في العلم والشعر والحياة .

شيء من أخباره :

من ذلك أنه كان في مجلس الأمير أبي سعيد الطائي فدخل عليه البحري وهو شاب فمدحه ، فادعى أبو تمام أن القصيدة له وأعاد معظمها ، ونسب للبحري سرقها ، فغزي البحري وخرج ، ولكن أبا تمام استدعاه وقال له : « الشعر لك يا بني ... ولكن ظننت أنك تهاونت بموضعي وأردت مكائرتي ، حتى عرفني الأمير نسبك ، ولوددت ألا تلد طائية إلا مثلك » وفي هذه القصة دلالة على شهرته وذكائه ؛ وقيل عنه في مورد الذكاء أنه كان يجيب المتكلم قبل انقضاء كلامه ، كأنه كان يعلم ما سيقول فيبادر بالجواب . مدح الوزير محمد بن عبد الزيات بقصيدة منها :

دِيمَةُ سَمْحَةِ الْقِيَادِ سَكُوبُ مُسْتَغِيثُهَا الثَّرَى الْمَكْرُوبُ
لَوْ سَعَتْ بَقْعَةُ لِإِعْظَامٍ أُخْرَى لَسَعَى نَحْوَهَا الْمَيْكَانُ الْجَدِيبُ

فقال له الوزير : « يا أبا تمام انك لتجلتي شعرك من جواهر لفظك ، وبديع معانيك ، ما يزيد حسناً على بهي الجواهر في أجياد الكواعب ، وما يدخر لك شيء من جزيل المكافأة إلا ويقصر عن شعرك في الموازنة » وكان بحضرته فيلسوف فقال : « إن هذا الفقي يموت شاباً » ف قيل له « ومن أين حكمت عليه بذلك ؟ » فقال : « رأيت فيه من الحدة والذكاء والفطنة مع لطافة الحس وجودة الخاطر ما علمت به أن النفس الروحانية تأكل جسده كما يأكل السيف غمده »

ومدح الأمير أحمد بن المعتصم بقصيدته السينية وفيها يقول له :

أبليت هذا المجد أبعد غاية فيه ، وأكرم شيمة ونحاس (١)
إقدام عمرو ، في سماحة حاتم في حلم أحنف ، في ذكاء إياس
وكان الفيلسوف العربي أبو يوسف يعقوب بن الصباح الكندي حاضراً
فقال للشاعر : « الأمير فوق من وصفت » فأطرق أبو تمام قليلاً ثم
قال مرتجلاً :

لا تُنكروا ضربي له من دونه مثلاً شروداً في الندى والنباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس
وأخذت القصيدة من يده فلم يجدوا فيها هذين البيتين ، فعجبوا من
سرعة فطنته ، ولما خرج مكرماً قال أبو يوسف الكندي : « هذا الفتى
يموت قريباً » وكذلك كان .

نتائج هذه الرحلات :

كان لرحلاته ضربان من النتائج أحدهما يتعلق بنفسه والآخر يتعلق بغيره :
أما النتائج المتعلقة به فتظهر في أن أبا تمام أصبح شاعراً مسلماً عربياً
لا يصطبغ بصبغ اقليمي ، فلا يقال عنه أنه شامي الطريقة أو المزع فقط ،
ولا أنه مصري الثقافة والمعرفة ، ولا عراقي الأسلوب والصوغ ، ولا هو
بيّن الميل ؛ وإنما جمع من كل شيء خصائصه ، فكان من مجموع ذلك طاقة
من الزهر هي هذه العبقرية الطائية . ولاند صهرت الرحلات تلك الآثار .

(١) النحاس : مثلثه الأول : الطبيعة ، والأصل . وعمرو بن معدي كرب
الفارس المشهور . وإياس بن معاوية قاض شديد الذكاء . والأحنف سيد
العرب ومضرب المثل في الحلم . وحاتم الجواد المشهور .

في بوتقة نفسه فظهرت في عواطفه واحساسه ، فصقلت شعوره وعقله ،
وأتمت التجارب معرفته بأخلاق الناس ، وعلمته حسن المعاشرة والمصاحبة ،
والصبر على الألسن الحادة ، وكان من جماعها أخلاقه الكسبية .
أما النتائج المتعلقة بغيره من هذه الرحلات فكانت في إكثار الحساد ،
وفي الطعن عليه من العلماء والشعراء ، وحتى من بعض الأعراب المرتزقة ،
بالرواية والشعر ؛ وليس غريباً أن يكثر هؤلاء ، وقد أحملهم وسد عليهم
منافذ الرزق ، وحيثما وجد امتنع الخير عنهم فأصبحوا ينجشون نزوله ان
سمعوا به قريباً ؛ فكانوا يبدأون بالهجوم فيهمجون ، ولكنه كان يترفع عن
الإجابة في أغلب الأحيان ، فلا يجيب هاجياً ، إذ لا يراه كفواً ولا نظيراً
فهو لا يشغل به .

قيل له مرة عن شاعر هجاء « ويحك قد فضحنا هذا بهجائك فأجبه »
فقال : « إن جوابي يرفع منه ، وأستدرّ به سبّه ، وإذا أمسكتُ عنه
سكتت شغشقتة ، وما في فضل مع هذا عن مدح من اجتديه » .
وعزم أبو تمام مرة على الانحدار إلى البصرة والاهواز لمدح من بهما
فبلغ ذلك عبد الصمد بن المعتدل فكتب إليه هاجياً :

أنت بين اثنتين تغدو مع الناس وكلتاها بوجه مُدال
لست تنفك طالباً لوصال من حبيب ، أو طالباً لنوال
أي ماء لماء وجهك يبقى بعد ذل الهوى وذل السؤال ؟
فلما قرأ الشعر قال « شغل هذا ما يليه ، فلا أَرَب لنا فيه . » وأضرب
عن عزمه

فتجرّد أبي تمام عن الصبغة الاقليمية ، وخبرته بالناس ، وحسن معاشرته ،
وترفعه ، وإخمال الشعراء المتكسبين ، كانت بعض ثمار تلك الرحلات .

وانتهى المطاف بأبي تمام إلى مديح الحسن بن وهب ، وكان مقدماً
وجيهاً وكاتباً شاعراً ، فولاه بريد الموصل ، فأقام بها أقل من سنتين . ثم
توفي فيها سنة ٢٣١ هـ . وبني عليه أبو نهشل بن حميد الطوسي قبة بقيت
إلى ما بعد القرن السابع الهجري ، وكانت خارج باب الميدان على حافة
الحنديق وكانت العامة تقول : « هذا قبر تمام الشاعر » .

وقد رأى القبر والقبّة ابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ . وكان قد مر
بهما الشاعر الدمشقي محمد بن معين المتوفى سنة ٦٣٠ هـ . فذكر الموصل في
قصيدة مدح بها الملك المعظم شرف الدين عيسى بن محمد العادل بن أيوب
المتوفى سنة ٦٢٤ هـ . وفيها يقول :

سقى الله دَوْح الغوطتين ولا ارتوت

من الموصل الجدباء الا قبورها

ولما سئل عن تخصيصه قبور الموصل بالسقيا قال : « لأجل أبي تمام » (١)
وقد رثاه الوزراء والكتاب والشعراء ، ومنهم وزير المعتمد محمد بن
عبد الملك الزيات إذ قال :

نبأ أتى من أعظم الأنباء

لما ألمّ مقلقل الاحشاء

قالوا : حبيبٌ قد ثوى ، فأجبتهم

فاشدتكم لا تجعلوه الطائي

(١) ابن خلكان : ١٥٣/١

وقال فيه الحسن بن وهب : ~~سقى~~

سقى بالموصل القبرَ الغريباً سحائبٌ ينتحبُن له نجيباً
فإن تراب ذاك القبر يحوي حبيباً كان يدعى لي حبيباً
ورثاه الشاعر الحمصي ديك الجن بقوله :

فَجِيعَ القْرِيبِ نَجَاتِمْ الشَّعْرَاءِ وَغَدِيرِ رَوْضَتِهَا حَبِيبِ الطَّائِي
مَاتَا مَعًا فَتَجَاوَرَا فِي حَفْرَةٍ وَكَذَلِكَ كَانَا قَبْلُ فِي الْأَحْيَاءِ
وقال علي بن الجهم يرثيه :

غاضت بدائعُ فطنة الأوهام

وعدت عليها نكبة الأيام

وغدا القريض ضئيلَ شخصٍ باكياً

يشكو رزيمته إلى الأقلام

وتأوهت غررُ القوافي بعده

ورمى الزمانُ صحيحها بسقام

أودى مشققها ، ورائضُ صعبها

وغديرُ روضتها أبو تمام

وروى ابنُ البحتري أن أباه رثى أبا تمام ودعبلاً بخمسة أبيات أوردها

الصولي (٢٧٤) وهي ليست من جيد الشعر ، ولا هي مثبتة في ديوان أبي
عبادة وفيها :

قد زاد في كلفني وأوقد لوعتي

مشوى حبيب يوم مات ودعبل

حدث على الأهواز يبعد دونه

مسرى النعي ورقة بالموصل

وتنفس الصعداء خصومه وحساده في وفاته فرثاه أحدهم بهجاء وضع :

صفاته وأخلاقه :

« كان أبو تمام أسمر طوالاً فيه مُحبسة وتمتمة يسيرة ؛ حلو الكلام

فصيحا ، كأن لفظه لفظ الاعراب » .

ولكنه كان إذا أنشد قبيح الانشاد ، ولذلك اشترى غلامه الفتح

بثلاثمائة دينار ، لحسن انشاده الشعر وفصاحته وأدبه .

وكان كريم النفس ، جم المروءة ، أيماً ، لا يتذلل ، مترفعاً لا يجيب

على الهجاء ، ظريفاً ودوداً ، يرعى حرمة الأدب ويرأها نسباً بينه وبين

الأدباء ، يبذل للمحتاج منهم ماله وجاهه . وربما نخلت كفه . شكا اليه

البحثري قلةً ، فكتب إلى أهل معرة النعمان يوصيهم به ، فأكرموه ووظفوا

له أربعة آلاف درهم حتى كان البحثري يقول : « والله ما أكلت الخبز

الآن به » .

وكان حاد الذكاء حاضر البديهة ؛ سريع الجواب ، في شكل عجيب ،

وقد شهدنا ذلك في قصة البيتين اللذين مدح بهما أحمد بن المعتصم ، وكان

فوق هذا قوي الحافظة جمع صدره ما لم يلحقه فيه غيره ، ف قيل إنه كان

يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب ، غير القصائد والمقاطيع ، وقيل إنه

حفظ سبعة عشر ديواناً للنساء ؛ وكان غزير الفضل واسع المعرفة حسن

جسدها وهو بالموقدة صال . ويظهر أنه كان رقيق الدين تماجناً لا اعتقاداً
الاختيار ، راجح العقل ، مرهف الشعور « تأكل النفس الروحانية جسمه
كما يأكل السيف المهند غمده » . فكان لذلك أثره في مستخباته الرائعة
من أشعار المتقدمين وفي غوصه على المعاني بما لا يعرف عن سواه .

لهوه :

قيل إنه كان صاحب طرب ظاهر ، ولهو خفي ، يشتري الغلمان ويتغزل
بهم ، ويشرب الخمر ولكن من غير إسراف ، ولم يكن يتعهر ولا يصارع
بالمجون كغيره من خلعاء الشعراء ، وبذلك كانت الرصانة أغلب عليه ، وإذا
تحداه أحد العطاء ليجره إلى العبث أبي وأظهر العفة والجد .

دينه :

وكان إلى تلك الكثرة من المعاني الإسلامية التي طرقها ، وإلى شدة
الاعتزاز بالعروبة والإسلام ، ضعيف المحافظة على أركان الدين ،
متهاوناً بأحكامه .

وفد على الحسن بن رجاء الكاتب في خراسان ، قال الحسن : « فبلغني
أنه لا يصلي فوكلت به من لازمه أياماً . فلم يره صلى يوماً واحداً ، فعاتبته ،
فقال : « يا مولاي ، قطعت إلى حضرتك من بغداد ، فاحتملت المشقة ،
وبعد الشقة ، ولم أره يثقل عليّ ، فلو كنت أعلم أن الصلاة تنفعني ، وتركها
يضرني ما تركتها » . فعرف الحسن رقة دينه ، وأراد قتله لولا أنه خشي أن
يحمل على غير هذا .

وقال عنه أبو العلاء في رسالة الغفران : « وأما أبوتام ، فما أمسك من
الدين بزمام ، فإن قذف في النار حبيب ، فما تغني المدح ولا التشبيب . . . »
وقال : « وإن كان حبيب ضيع صلواته فإنه لضال ، لا يبلغ فيه كيد
العُداة ، ما بلغ من إهمال غداة ، واني لأضنُّ بتلك الاوصال ، إن يظل

كما يذكر صاحب مروج الذهب - لانا نرى في ديوانه وصفاً لحجة حجها ، كما نرى في شعره تمسكاً بروح الاسلام واعتزازاً بسننه وامجاده .

مذهبه السياسي :

اما مذهبه السياسي ، فقد كان بادیء الامر علویا يتشيع ويظهر العطف على أبناء فاطمة عليها السلام ويقول :

فعلتم بأبناء النبي ورهطه أفاعيل أدناها الخيانة والغدر
وكان هذا التشيع قبل ادراكه العقد الثاني من عمره ، وتقربه من الخلفاء والأمرء العباسيين ، فلما عرف النعمة والجاه التزم التقية وانقلب عباسياً يؤيد بني العباس ويمدح أمراءهم وعظماءهم ، فأغدقوا عليه النعم وأعلوا مكانته ، وقديماً قيل « اللّٰهی تفتح اللّٰها » (١) .

أسرته :

عرف لأبي تمام أخ يقال له سهم ، وكان يقول الشعر دوناً فمن شعره :
ونازعته شيئاً إليه مُبغضاً فلما رأى وجدي به صار يعشقه
فدعه ولا تحزن على فائز به فإن جديداً الليالي ستخلقهُ
وقد كان يحییء أخاه يستميحه ، فيوصي به .

وكان لشاعرنا ابن شاعرٍ هو تمام وبه يكنى ، وكانوا يستضعفون شعره ، ويستملحون حديثه إذا تكلم ، ويقولون : « يا بُعد ما بينه وبين أبيه ، إن لم يكن معه شعر أبيه ، فمعه ظرفه » .

(١) اللّٰهی جمع لهوة : أفضل العطايا وأجزلها . واللّٰها جمع لهاة وهي اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم . ويراد بالمثل أن العطايا تفتح الفم بالثناء .

الشاعر الطائي

مكانته الأدبية :

كان لأبي تمام طوال حياته زعامة أدبية لم يبلغها من الشعراء سواه ، وكان الذي يريد أن يتكسب بالشعر يرى واجباً عليه أن يعرض شعره على أبي تمام ليفسح له المجال في التكسب ، لأنه سد على الشعراء أبواب الرزق ، فلم يكن أحد يأخذ درهماً بالشعر في حياة أبي تمام ، ولهذه الزعامة والشهرة أسباب :

أولها الثقة بالنفس ، فقد كان يعرف من نفسه ما حليت به من أدب وعلم ، وكانت ثقته بنفسه قوية ، خرجت به إلى نتائج عملية حملته ، أولاً ، على استبقاء كل ما ينظم ، فلم يكن يطرح من شعره ما يجب طرحه ، مما تلوح عليه آثار القبح أو الغموض أو الاسفاف أو الضعف ، وكان يرى أن كل بيت من شعره بمثابة ابن له ، وهو لا يفضل من أولاده الصحيح على السقيم ، ولا الجميل على القبيح ، وحملته هذه الثقة ، ثانياً ، على التجديد وجرح آراء المحافظين ونقد نظرية من يقول « ماترك الأول للآخر شيئاً » فكان يرى خطأ قول زهير :
ما أُرانا نقول إلا مُعاراً أو مُعاداً من قولنا مكروراً

وقول عنترة : « هل غادر الشعراء من مُتردِّم »

وما كان يصح عنده أن الأولين قد استنفدوا أحسن القول وأجمل المعاني ، إذ من الظلم للفكر الانساني أن نزع قصور المتأخر عن شأو المتقدم ، فعليناً أن نقول : « كم ترك المتقدم للمتأخر » وأن نزيد في هذه الثروة المتروكة لأن « باب

الابداع للعاني - كما يقول ضياء الدين الموصلی - مفتوح إلى يوم القيامة ،
ومن ذا الذي يجبر على الخواطر ، وهي قاذفة بما لا نهاية له »

ولقد قوى هذه الثقة بالنفس سبب ثان من أقوى الأسباب الحاملة على
الاعتماد على النفس هو اتساع المعرفة ، وعمق الثقافة ، وكثرة ما ضمه صدره
من أنواع العلوم .

والواقع أن أبا تمام من أولئك الشعراء الذين يضمن الزمان بمثلهم في
المعرفة والثقافة والعلم ، وقد عرفنا ما كان يحفظ من ألوف الأراجيز عدا
المقطعات والقصائد ودواوين النساء ، يضاف إلى هذا أنه نخل كتب الأدب
واختار ست مجموعات من أشعار الفحول في الجاهلية والإسلام ضاعت كلها
إلا ديوان الحماسة الذي جمعه حينما اضطر للبقاء في همدان بسبب الثلج في
زيارة عبد الله بن طاهر .

وثقافته في اللغة وأبوابها ، والفلسفة وآفاقها ، وعلوم عصره على اختلاف
أنواعها ، ظاهرة في شعره ، فلا تكاد تذكر علما مستفيضاً من علوم بني
العباس دون أن ترعى مشاركة أبي تمام فيه : كأيام العرب ، وأحوالهم
وأمثالهم ، وأحداث التاريخ ، وأخبار الأمم الحالية كالفرس ، واليونان ؛
ومختلف العلوم ، ومناحي الفلسفة مما يدل على نفسه في كلامه ؛ حتى كانوا
يقولون : (إن عقله وعلمه فوق شعره) وحتى عُد في طبقات النحاة ورجال
الثقافة العامة ، فمن آثار هذه الثقافة النجوية قوله في الحمر :

خرقاء تلعب بالعقول حبابها كتلاعب الأفعال بالأسماء
والملاحظ في هذه الثقافة أن صاحبها قد هضمها وتمثلها وتصرف بها كيفما

شاء ، فكانت مطاوعة له ، يُحسن الاستشهاد بها والاعتماد عليها في بيان آرائه ومعانيه وومضات فكره ، فمن ذلك قوله في الخمر أيضاً :

جَهْمِيَّةُ الْأَوْصَافِ إِلَّا أَنَّهُمْ قَدْ لَقَبُوهَا جَوْهَرَ الْأَشْيَاءِ

وبيان هذا المعنى يقتضي أن نلم بمذهب جهم بن صفوان ، فقد كان يمنع أن يسمى الله باسم ، لأن الاسم عنده يطلق على الجوهر والعرض معاً ، والخمرة عند أبي تمام قد رقت حتى كادت تخرج عن أن تكون عرضاً أو جوهرًا ، ولفخامتها وعظمتها لقبها جوهر الأشياء ، فهي مسماة وغير مسماة في وقت واحد .

ويقول في موضع آخر :

عَمْرِي عَظُمَ الدِّينَ جَهْمِيُّ الْهَوَى

ينفي القوى ، وَيُثَبِّتُ التَّكْلِيفَ

ولهم هذا البيت يجب أن نلّم بما كان عليه عمرو بن عُبيد من الزهد والدين والفقه والورع ، وما كان يقول به جهم بن صفوان من نفي القدرة عن العبد في ما هو مأمور به ، وجعله مكلفاً مع ذلك ، ويراد بالبيت أن المدح مجبر على البذل فلا يستطيع تركه .

ويقول في ألفاظ المتكلمين عن الجوهر والعرض :

مَوَدَّةٌ ذَهَبٌ ، أَثْمَارُهَا شَبَّةٌ وَهَمَّةٌ جَوْهَرٌ ، مَعْرُوفُهَا عَرْضٌ

ويقول في ألفاظ الفقهاء من الخطأ والعمد :

فَإِنْ يَكْ جَرَمٌ عَنَّْ أَوْ تَكُ هَفْوَةٌ

عَلَى خَطَأٍ مَنِي فَعُذْرِي عَلَى عَمْدِي

ومن ذلك ضربه المثل في المديح بالمشكاة التي ضربها الله مثلاً لنوره ،
وقوله في وصف شعل النار التي أحرق بها الأفشين (١) :

فَقَصَلْنَا مِنْهُ كُلَّ جَمْعٍ مَفْصِلٍ وَفَعَلْنَا فَاقِرَةً بِكُلِّ فَقَارٍ
أخذه من قوله تعالى : « تظن أن يفعل بها فاقرة »

والأمثلة كثيرة على مبلغ اتساع ثقافته وظهور آثارها في شعره .
وقصيدته البائية في فتح عموريه ، أو غيرها من شعره يتفنا على كل ما تقدم
ويوضح لنا فكرة الآمدي إذ يقول :

« كان أبو تمام مشهوداً له بالعلم والشعر والرواية ، وإن العلم في شعره
أظهر ، وإنه أتى بمعان فلسفية »

وقد أعانته هذه العلوم على إيجاد معان جديدة مخترعة ماعرفها المتقدمون
من ذلك قوله في الشيب :

شَعْلَةٌ فِي الْمَفَارِقِ اسْتَوْدَعْتَنِي فِي صَمِيمِ الْفُؤَادِ تُكَلَّا صَمِيماً
يَسْتَشِيرُ الْهَمُومَ مَا اكْتَنَّ مِنْهَا صُعُداً وَهِيَ تَسْتَشِيرُ الْهَمُومَا

قال ابن الأثير : « البيت الثاني من المعاني المخترعة ، تفقّه فيه فجعله
مسألة من مسائل الدور والتسلسل ، وهذا من إغراب أبي تمام المعروف » .
وهنا نصل الى سبب ثالث يدعم زعامته هو اختراعه للمعاني ، وهذا
وإن يكن نتيجة ما أوتي من ذكاء وفطنة ، وأرهاف شعور ، وسعة معرفة ،

(١) ثار بابك الحرّمي على المعتصم فأرسل اليه قائده الأفشين حيدر بن
كاوس ، وكان من أكابر القواد وفحول الشجعان ، فقبض على بابك وحمله
الى المعتصم فقطعه وصلبه ، ثم علم المعتصم خيانة من الأفشين فقبض عليه
وقتل وصلبه وأحرقه على مثل خشبة بابك سنة ٢٢٦ هـ .

واعتماد بالنفس ، فهو ركن من دعائم شهرته يتجلى في غوصه على المعاني ،
وإتيانه بما لم يعرف الشعراء والأدباء من قبل ، حتى أجمع الأئمة على أن له
كثيراً من المعاني المخترعة ، كدّ ذهنه فيها ، وإنهك جسمه في سبيل الوصول
إليها ، وربما ظهرت آثار الدم في عينيه لكثرة الإجهاد والتفكير ، وبهذا
رأى أبو تمام أنه يستطيع أن يصل إلى أعماق مما وصل إليه السابقون فقال :

فلو كان يفنى الشعرُ أفناه ماقرت

حياضكُ منه في العصور الذواهبِ

ولكنه صوبُ العقولِ إذا انجلتْ

سحائبُ منه أعقبتْ بسحائبِ

وقال :

يقول من تفرع أسماؤه : كم ترك الأول لآخر!

وكان أبو تمام يعشق المعنى الجديد إلى أبعد مدى ، ويهمه وعاء هذا
هذا المعنى وكساؤه فهذه ويصقله ليظهر معناه في رداء قشيب ، ولكنه إن
شعر بقصور في المعنى حين تزيين الرداء ، لم يبال باللفظ عني بالمعنى ، ولاجل
هذا قال عنه ابن الرومي : « أبو تمام يطالب المعنى ولا يبال باللفظ » وقال
عنه البحري : « كان اغوص على المعاني وأنا اقنوم بعمود الشعر » لأن البحري
كان يهتم باللفظ العذب ومسارته لأساليب القدماء أكثر من عنايته بالمعاني
العويصة والأفكار الجديدة .

فعاية أبي تمام بالمعاني والابتكار فيها تأتي قبل كل شيء ، فإذا وفق
للمعنى الطريف عمد إلى اللفظ فاختر أحسنه ، وصقل جوانبه ، وزين
أطرافه واستخدم الصنعة البديعية على مقياس واسع ، حتى يخيل للمرء أن

عنايته باللفظ لا تقل عن عنايته بالمعنى ، والواقع انه كان كذلك ، ولكن اذا كان لابد من الترجيح فالمعنى عنده ارجح ، والاختراع افضل ، وقد عُدَّ له من المعاني المخترعة في الاثواب القشبية ما بلغ العشرين وهو كثير بالنسبة للشعراء المخترعين ، من ذلك قوله :

يا أيها الملك النائي برؤيته وجوده لمراعي جوده كُشِبُ
ليس الحجابُ بمُقَصِّ عنك لي أملا
وَقَوْلُهُ :
وَقَوْلُهُ :
وَقَوْلُهُ :
وَقَوْلُهُ :

رَأَيْنَا الْجُودَ فِيكَ وَمَا عَرَضْنَا
وَلَكِنْ دَارَةُ الْقَمَرِ أُسْتَمْتُمْ
وَقَوْلُهُ :
وَقَوْلُهُ :
وَقَوْلُهُ :
وَقَوْلُهُ :

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ
لَوْلَا اشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ
وَقَوْلُهُ :
وَقَوْلُهُ :
وَقَوْلُهُ :
وَقَوْلُهُ :

لَا تُنْكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مِنْ دُونِهِ
فَاللَّهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقْلَّ لِنُورِهِ
وَقَوْلُهُ :
وَقَوْلُهُ :
وَقَوْلُهُ :
وَقَوْلُهُ :

لَا تُنْكِرِي عَطْلَ الْكَرِيمِ مِنَ الْغَنَى
وَقَوْلُهُ :
وَقَوْلُهُ :
وَقَوْلُهُ :

بَنِي مَالِكٍ قَدْ نَبِهْتَ خَامِلَ الثَّرَى
وَقَوْلُهُ :
وَقَوْلُهُ :
وَقَوْلُهُ :

غوامضُ قيدُ الكفِّ من متناولٍ وفيها عللاً لا يرتقى بالسلام

والناظر يرى آثار الصنعة الأدبية البلاغية بادية على هذه المعاني المخترعة ،
وهو إن عاد إلى ديوان الشاعر وجد تلك الصنعة مستفيضة أيما استفاضة ، فإذا
عدَّ أبو تمام إماماً في اختراع المعاني ، فواجب أن يعدَّ إماماً في الصنعة البديعية
والاستكثار منها وترويضها حتى اسلست له القياد .

ولكنه ليس أول من مهد السبيل للولوجين بها ، ولا كان أول موجد
لها ، فقد سبقته محاولات فنية قطف هو ثمارها وأتمى غراسها حتى ظهر
الفن عنده أكمل مما كان عند سواه .



الصنعة في الأدب

والمنقب عن مهده هذه الصنعة يجده في جاهلية اللغة قبل إسلامها ، إذ يعثر على أنواع من الصنعة والفن كانت تبيء عفواً الخاطر دون تكلف أو إعمال ، وهذا امرؤ القيس يقابل ويطابق بين المعاني المتضادة فيقول :

مِكْرٍ مَفْرٍ ، مَقْبَلٍ مَدْبَرٍ مَعَاً كَجَلَمٍ وَدَصْخَرٍ حَطَه السَّيْلُ مِنْ عَلٍ
وكان أوس بن حجر من أكثر الشعراء روية فقال وفي قوله جناس :
قد قلت للركب لو لا أنهم عجلوا عو جواعلي فحيوا الحيَّ أوسيروا
وزى الترصيع في قول طرفة :

بطيٌّ عن الجَلَى ، سَرِيْعٌ إِلَى الْخَنَا ذُلُولٌ بِأَجْمَاعِ الرِّجَالِ مُلْهَدٌ
ثم جاء القرآن الكريم وفيه كثير من المحسنات البديعة كالازدواج
الوارد في أوساط الآيات فضلاً عن تزاوج الفواصل في قوله تعالى : « الحمد
لله الذي خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور » وبقوله
تعالى : « ولستم بأخذيه ، إلا أن تغمضوا فيه » .

وورد في القرآن الكريم كثير من السجع ، وربما جاءت سور بكاملها
ملأى بالسجع كسورة الرحمن والقمر ومن أمثلة ذلك قوله تعالى :
« والعاديات ضبحاً ، فالموريات قدحاً ، فالمغيرات صبحاً ، فأثرن به نفعاً ،
فوسطن به جمعاً » .

وقد جاء في كلام الرسول صلى الله عليه وسلم محسنات بلاغية كثيرة ،
كقوله للأَنْصار وفيه الطباق والسجع : « إنكم لتكثرُونَ عند الفزع ،

وتقولون عند الطمع » ، وقوله مسجعاً : « اللهم منزل الكتاب ، ومجري السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم » (متفق عليه) وكقوله عند قدومه المدينة : « افشوا السلام ، واطعموا الطعام ، وصَلُّوا الأرحام ، وصَلُّوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » ، وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « استحيوا من الله حق الحياء » قلنا : إنا لنستحي من الله يا رسول الله قال : « ليس ذلك ، ولكن الاستحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، وتذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا » .

وفي بعض كلام الرسول مزاجعة ربما حملته على صرف الكلمة عن الأصل لمشكلة الكلمات في اللفظ كتعويذه لسبطه : « أعينه من الهامة ، والسامة ، والعين البلامّة » وأصلها المامة من ألمّ .

وكقوله لنساء : « انصرفن مأزورات ، غير مأجورات » والأصل موزورات ؛ ومن صرف الكلمة عن أصلها ما قاله قس بن ساعدة في عكاظ : « جبال مرساة ، وأرض مدحاة ، وأنهار مجراة » والأصل مدحوة ، وصرفت عن أصلها لمشكلة أخواتها . والملاحظ في كل هذا بُعد عن التكلف حتى أن الرسول حينما قضى على رجل بدية جنين قال الرجل : « أأدي من لا شرب ولا أكل ، ولا نطق ولا استهل ، ومثل ذلك بطل » فنفر الرسول من هذا السجع وقال : « أسجعاً كسجع الكهان » ، وهكذا كانت الصنعة ، تأتي عفو الخاطر ، في الجاهلية والإسلام وإنا لنرى آثارها في شعر الشعراء الأمويين ، فجرير وهو أطبع شاعر أموى يقول وفي قوله طباق :

وباسط خير فيكم بيمينه وقابض شر عنكم بشماله

ونوع آخر من الصنعة الفنية هو الاستعارة بأنواعها ، وأعظمها تلك
التي تضع الأشياء على مرأى العين فتشخصها وتجسمها ؛ وكان لأبي تمام مجال
الإبداع فيها كما سنرى ، وقد وردت في شعر الجاهلية فقال امرؤ القيس في
صفة الليل :

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكل كل
فجعل الليل مجسماً له صلب يتمطى به ، وأعجاز يردفها ، وكل ينوء
به ، ومثله قول طفيل :

وجعلت كوري فوق ناجيه يقتات لحم سنامها الرجل
فجعل الرجل حيواناً يأكل السنام .
وقول ليبيد :

وغداة ريح قد كشفت وقرّة إذ أصبحت بيد الشمال زمامها
فجعل للريح الشمالية يداً تمسك بها الزمام .

ومثله في القرآن الكريم قوله تعالى : « كتابٌ أنزلناه إليك لتخرج
الناس من الظلمات إلى النور » فجعل الضلال والإيمان شيئين مرئيين هما
الظلمة والنور . وقوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام : « رب إني وهن
العظم مني واشتعل الرأس شيباً » كأنما الرأس وقود يلزمه الاشتعال .

وقوله عز وجل : « ولما سكنت عن موسى الغضب » فجسم الغضب كأنه
إنسان وشبه انتهاء الغضب بالسكوت ؛ وأمثلة ذلك كثيرة ، وجاء
الشعراء والأدباء من بعد يعتمدون على هذا الضرب من البلاغة دون
تكلف أو إعمال فكر ، حتى كثر المستعربون ، وأوشكت الطباع أن تقصر

عن اللحاق بالمتقدمين ، وفشا حب التزين والتأنق في الحياة وفي الكتابة معاً .

ولقد كان أول من أكثر من هذه المحسنات والاستعارات صريع الغواني مسلم بن الوليد أستاذ أبي تمام ، وذهبت طائفة إلى أنه أول من فتح باب الصنعة للشعراء ، فأخذ طريقته أبو تمام وبالغ وأغرق ، ولكن لأنني تمام طريقة خاصة كما سنرى في الكلام على فنه .

وجاء بعده جماعة أغرموا بالصنعة كثيراً ، وبرع فيها في القرن الرابع ابن العميد والصاحب ابن عباد وبديع الزمان ، وكانت لا تزال فيها بقية من طبع دون تصنع ممقوت ، وأعقب هؤلاء فئة ذهبت في الصنعة بعيداً وتكلفت إلا أنها كانت على جانب من البلاغة وصفاء الدهن أخفت تحته قبح التكلف وعناء الاجهاد ، ومثل هذه الطبقة الحريري أحسن تمثيل ، وأعقبها جماعة جعلت الكتابة رصفاً وتزييناً كالقاضي الفاضل أيام صلاح الدين حتى أصبحت العهود تكتب مسجعة ، وصارت الصنعة رداء العجز وقصور الطبع ، ولم يستطع الآتون أن يبلغوا ما بلغ الأولون ، فهوت الكتابة ، وجاءت العصور المظلمة من أيام الانحطاط فخبا الطبع حتى نهضت اللغة من جديد ، في القرن التاسع عشر فكان الحريري إماماً ينسج على منواله ، ثم انطلق الناس من قيوده وعادت للكتابة طلاوتها ورونقها كما ترى في أيامنا .

اساتذته :

عرفت مبلغ ما كان يتحلى به أبو تمام من ثقافة واسعة في العلم والأدب ، وأنه درس الشعراء المتقدمين وتدخل من شعرهم أحسن ما وجد فجمع ست مجموعات تدل إحداها على فضل وعلم غزيرين .
كان كل أولئك مؤثراً في معرفته ، ولكن طابع التجديد والفن كان

من أبرز ما عرف عنه ، وهما من آثار شاعرين كبيرين تتلمذ عليهما أبو تمام وأخذ منهما أخص ما امتازا به ، فقد قالوا انه كان يكثر من النظر في ديواني أبي نواس ومسلم بن الوليد ، وقالوا انه سئل عنهما وهو مشغول بهما فقال إنهما « اللات والعزى » يريد أنه يحل شعرهما محل اللات والعزى عند عبادهما في الجاهلية .

والواقع أن أثر الشاعرين الكبيرين واضح في عبقرية أبي تمام ، وإن كان لغيرهما فيها آثار ، لأن المرء ثمرة عوامل متعددة لا تنكر جميعها وإن لم يعرف غير طائفة خاصة منها .

وأنا لنتبين آثار هذين الشاعرين في التجديد والفن حينما نقف على خصائص شعره ، ومدى إحسانه ، ولكن لا بد لنا قبل كل شيء من أن نتبين عصره ونعين موقعه من الشعراء العباسيين وغيرهم .

عصره وموقعه من بقية الشعراء :

طلع العصر العباسي الأول على الأدب العربي بسلسلة من الشعراء يتمايزون في ثقافتهم ، كما يختلفون في خصالهم ، فكانوا طبقات أو حلقات ، تختلف بحسب تأثير العلم والترجمة عن الأمم المختلفة . ونحن نذكر أن أول عهد الترجمة الفعلي كان أيام المنصور إذ نقل ابن المقفع كتاب المنطق لارسطو عن الفارسية ، كما نقل عن الفارسية كليلة ودمنة أو بعضه ، والأدب الكبير وغيره .

ونعلم أن الثقافة الفارسية كانت أسبق إلى العربية لتقرب الفرس من العرب ، ولندوبان مدينتهم في البوتقة العربية .

وإذن فقد كان صدر بني العباس أكثر تأثراً بالثقافة الفارسية ، ثم طغى سيل الترجمة عن اليونان فانطبعت الأفكار العربية بالثقافة الجديدة اليونانية وانتفع الناس بالطابعين الأجبيين معاً .

وتكونت للشعب ثقافة جديدة هي ثمرة هذا الخليط من المؤثرات؛ وعلى هذا الموجز من الكلام على الثقافات نستطيع أن نجعل الشعراء طبقات، أولها الذين ولدوا في عصر بني أمية وقضوا فيه شطراً من حياتهم ثم أدركوا العصر العباسي فكان لهم فيه شأن يذكر، وقد تفقوا الفارسية إلى حد ما، ولم يكن للعلوم اليونانية تأثير فيهم، وأظهر رجال هذه الطبقة: بشار بن برد، والسيد الحميري، ومروان بن أبي حفصة؛ وبشار زعيم المحدثين على الإطلاق. والطبقة الثانية هي التي نشأت في ظلال بني العباس ونالت حظاً وافراً من الثقافة الفارسية، وتأثرت نوعاً ما بالثقافة اليونانية، وكانت على كل حال أكثر ثقافة بالفارسية واليونانية من الطبقة الأولى؛ وأبرز من في هذه الطبقة زعيم المحدثين الثاني أبو نواس، ثم أبو العتاهية ومسلم بن الوليد وقد ظهرت علائم الثقافة الفارسية واليونانية على هؤلاء وكانت معاني أبي نواس وزهد أبي العتاهية كبيرة الشبه بالمعاني والحكم الفارسية واليونانية.

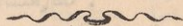
ونلاحظ أن الشعر قد بلغ أشده زمن هذه الطبقة، وأخذ الناس يعنون بالبديع أكثر من ذي قبل، وحسبنا أن نذكر مسلم بن الوليد أحد رجال هذه الطبقة وزعيم الصنعة والفن كما مر، فكان من خصائص هذه الطبقة الصقل والتهذيب والفن البلاغي بصورة عامة، والتوسع بعلوم العربية وأنواع المعارف.

ثم جاءت بعدها الطبقة الثالثة التي نشاهد فيها تطوراً جديداً. وذلك أن شأن الثقافة العامة قد عظم واتخذ الشعر شكلاً محبباً مصنوعاً، وكان لكل أفق من آفاق المعرفة طابع يظهر في الشعر، وكان أبرز شعراء هذه الطبقة شعراء الشام، وإذا شئت فقل إن هذه الطبقة هي المدرسة الشامية التي حمل مشعلها أبو تمام، فكان للتهذيب والتحسين واختراع المعاني الحديثة والانتفاع بالآراء الفلسفية والحكمية نصيب من جهد الشاعر؛ ومن رجال هذه

السلسلة أبو عبادة البحرى ، ولكن هذا لم يغرق إغراق أستاذة في المعاني ، وإن لم يكن أقل منه عناية بالتهذيب والصقل .

ويمكن أن نعد في رجال هذه الطبقة ابن المعتز إذ نجده في شعره يتتبع البديع ويلتزم المحسنات اللفظية حتى يبلغ مبلغ التكلف في بعض الأحيان ، وقد كان من السابقين إلى التأليف في علم البديع ، ونعلم بعدئذ أن الخيال وحده لم يعد يكفي الشاعر للاجادة والاحسان ، بل لا بد له من ثقافة عامة ، وعلم واسع ، وعناية خاصة ، هي ظاهرة المدرسة الشامة التي بسطت سلطانها على الشام والجزيرة ، وفتنت لطائفها كبار الأدباء كالصاحب ابن عباد . وكان من رجال هذه الطبقة ابن الرومي ، وشعره من أكبر مظاهر الثقافة الفارسية الرومية حتى قيل عن وحدة القصيدة عنده إنها من تلك الآثار . وجاءت طائفة بعد هؤلاء أغرقوا في هذه الخصائص أيما إغراق ، ورأوا أن الشاعر يجب أن يكون عالماً متبحراً قبل أن يكون ناظماً مستعذب الكلام . ومن أوتي الناحيتين فقد أوتي خيراً كثيراً ، وكان أبرز من مثل هذه الطبقة المتنبي والمعري وهما الدرورة التي وصلت إليها الثقافة الأدبية والصنعة الفنية .

فاذا تبينا هذا وعدنا إلى النهضة الأدبية التي كانت في القرن الثاني والثالث من الهجرة وإلى اتساع رقعة المملكة الإسلامية عرفنا أي عصر ذهبي عاش فيه أبو تمام . وعرفنا موقعه من شعراء عصره ومن شعراء العرب على وجه أعم .



فن أبي تمام

لعل أوضح سبيل للتعرف إلى هذا الفن أن نضع أمامنا أَمْوِزاً من أروع القطع التي جود فيها أبو تمام، فإذا نظرنا في الأبيات مجتمعة ومنفردة، وسألنا كل بيت عما فيه من علم، أو لفظة فكرية، أو إشارة بلاغية، فانا واصلون إلى تعرف النواحي المتعددة من شعره، وبالغون الحكم العادل في قيمته.

لننظر في قصيدته عن عمورية أو غيرها، تظالنا ثقافة عالية تدل على مختلف نواحي المعرفة أيام بني العباس، وإلى جانبها صنعة تبحر أحياناً عفو الخاطر، وتظهر عليها أحياناً آثار العنف والاكراه، وإذا دققنا فيما نقرأ شهدنا الحكمة اليونانية، والمعاني الفارسية، والأفكار الإسلامية، والذخيرة العربية متساوقة منسقة معروضة في أجمل عرض، ورأينا الكنايات والاستعارات تجمّل الكلام حيناً، وتخرج عن حد الاستطراف إلى التكلف حيناً آخر.

فأول ما يدهنا من كلامه خروج عن طريقة العرب المألوفة في الابتداء من الوقوف على الاطلال ومخاطبة الصحاب، إذ نرى أبا تمام يبدأ بالحكمة والركون إلى القوة والاعتماد عليها في أحقاق الحق؛ ثم الصنعة بأقسامها المختلفة مستفيضة مسرفاً في استعمالها.

ونلمس فوق هذا آثار الجهد وكد القريحة لبلوغ الأعماق من المعاني واستخراج شيء جديد من الصور، ثم نرى أن هذا التعمق كان يصل

بالشاعر الى براعة في التصوير مع حسن مراعاة للصنعة ، ولكن شدة التعمق تعرضه في بعض الأحيان لمقال اللامئين ؛ انظر في قوله :

السيف أصدق أنباء من الكتب

في حده الحد بين الجد واللعب

فقد جانس بين الحدين وطابق بين الجد واللعب ثم قال :

بيض الصفائح لا سود الصحائف في

متونها جلاء الشك والريب

فجانس بين الصفائح والصحائف جناساً غير تام ، وطابق بين البياض والسواد فكان لنا من ذلك صناعة لطيفة الى جانب التفكير والرأي السديد .

واذا ذهبنا في القصيدة أو في غيرها نستقصي ما فيها من استعارات وصنعة لفظية ومعنوية الى المعاني العميقة ، والمعرفة الواسعة طال بنا نفس القول ووجدنا فيها كثيراً مما أشرنا اليه .

المقابلة والطباق :

والشيء الذي يسترعي انتباهنا في شعر أبي تمام ولوعه بانتقاء المعاني في المقابلة والطباق فكان يكثر من هذا النوع ، فمن ذلك مقابله في اللفظ والمعنى مما قد أحسن فيه إذ قال :

ما إن ترى الأحساب بيضاً وضحاً

إلا بحيث ترى المنايا سودا

ومن ذلك قوله :

إذا كانت النعمى سَلوباً من امرىء

غدت من خليجي كفه وهي متبع^(١)

وإن عثرت بيضُ الليالي وسودها

بوحده الفيتها وهي مجمع

ويومٌ يظل العز يحفظ وسطه

بسمر العوالي والنفوس تضيع

مصيف من الهيجا ومن جاحم الوغى

ولكنه من وابل الدم مربع

وقوله :

إذا تظلمت من أرض فصلت بها

كانت هي العز إلا أنها ذل

وقوله :

وظلمت نفسك طالباً إنصافها

فعجبت من مظلومة لم تظلم

فهو في كل ذلك يعتمد الى الطباق على شكله العادي المألوف ، كما مر ،

وتراه أحياناً يستخدمه بصورة معقدة مفلسفة ، تبعد عن سذاجته الاولى

التي نجدها عند مسلم بن الوليد واضرابه ممن عنوا بهذا النوع من التحسين

فمن ذلك قول شاعرنا :

(١) السَلوب : المسلوب ولدها ؛ المتبع : التي يتبعها ولدها

هي البدر يُغنيها توؤد وجهها إلى كل من لاقت وإن لم توؤد

أي أن وجهها يتوؤد بسحره وجماله وإن كانت هي أبة ممتعة ، ومثل ذلك قوله :

سرب خفض تحت الشرى ، وغناء من عناء ونصرة من شحوب

كأنما يقول كم من راحة جاءت بعد تعب ، وخير من شر .
ويظهر ما للتضاد عند من مكانة عالية في شرح أفكاره والإبانة عن قصده ، وحينما تستقصي كثيراً من شعره فترى كيف كان يعتمد إلى الإكثار من هذا النوع ، خذ قوله في أحمد بن أبي دؤاد مادحاً :

قد غرستم غرس المودة والشحناء في قلب كل قارٍ وباد

ابغضوا غزكم ووؤدوا نداكم فقرؤكم من بغضة ووداد
لا عدتم غريب مجد ربقتم في عُراه « نوافر الأضداد »

و « نوافر الأضداد » هذه التي عناها هي ما قصد إليه من « أن الناس يحسدونهم لشرفهم ويحبونهم لجودهم » .

فهذا التضاد الجميل في الفكرة نوع من التحسين أولع به وأكثر منه ؛ وهو تضاد يقوم على تفكير عميق مستمد من ثقافة أبي تمام الفلسفية ومن مزاجه الخاص .

التدبيج :

ومن أنواع الصنعة التي أبدع فيها أبو تمام « التدبيج » (١) وكان

(١) من دبح المطر الأرض إذا زينها .

يستعمله ألواناً متعددة في المعاني لقصد الكناية والرمز إلى فكرة خاصة ،
من ذلك قوله في رثاء ابن حميد الطوسي :

تردّى ثياب الموت حمراً فما دجا لها الليل إلا وهي من سندس خضر
يعني ارتدى الثياب الملطخة بالدم ، فلم ينقض يوم قتله حتى صارت ثيابه
من سندس خضر ، أي من ثياب أهل الجنة ، فجمع بين الحمرة والخضرة
وقصد بالأول الكناية عن القتل ، وبالثاني الكناية عن دخول الجنة ،
فوجد الشاعر في التدييج نوعاً من الرمز لأفكاره .

ويقول لبعض القواد في تبيان ما آلت إليه أذربيجان من هناءة بعد شقاوة :

جلوت الدجى عن أذربيجان بعدما
تردّت بلون كالغمامة أربد
وكانت وليس الصبحُ فيها بأبيض
فأمست وليس الليلُ فيها بأسود

وهو في هذا يرمز الى أفكاره عن طريق التدييج ؛ وهاهو ذا يرمز
الى أحداث الايام المواتية والمعاكسة في قوله :

أما وأبي الرجاء لقد ركبنا مطايا الدهر من بيض وسود
والاغراق في الميل الى الطباق والتضاد هو الذي جعل فريقاً من
الباحثين ينجحون الى ما ذكرناه من أن "التضاد سحبة في أصل طباع الشاعر ،
إذ كان يجمع في نفسه الفكر المتضادة ، وقد عرفنا انه حجج ، وأنه قال عن
الصلاة ما يحل قتله عليه ، وانه كان يشح احياناً لجانب جوده ، ومهما يكن
من أمر فقد أولع الشاعر بناحية فنية قائمة على روية وتفكير ، وتهذيب
وقصد ، وفلسفة شخصية عميقة .

الجناس :

والى جانب الطباق نجد شيئاً آخر من الصنعة قد أكثر منه ، وهو
الجناس ، فمن ذلك قوله :

بكل فتى ضرب يُعَرِّضُ للقنا مُحِيّاً مُحَلِّاً حليه الطعنُ والضرب
فالضرب الاولى الرجل الخفيف ، والثانية الضرب بالسيف .

وقوله :

فأصبحت غررُ الأيام مشرقةً بالنصر تضحك عن أيامك الغررِ
فالغرر الأولى استعارة من غرر الوجه ، والثانية من غرة الشيء
وهى أكرمه ، وقوله :

من القوم جعدٌ أبيض الوجه والندى وليس بنانٌ يُجتدى منه بالجعدِ
الجعد الأول السيد ، والبنان الجعد ضد السبط ، فأحدهما وصف للسخي
والثاني للبخيل ، وقوله :

عداك حرُّ الثغور المستضامة عن برد الثغور وعن سلسالها الحَصْبُ^(١)

فالثغور جمع ثغر وهو الفم ، وهو ايضاً البلد على تخوم العدو ، وقوله :

بيضٌ إذا انتضيت من حجبها رجعت

أحقّ بالبيض أبداناً من الحجب

(١) الحَصْب : اللبن لا يخرج زبده من برده ، ويكنى به هنا عن الريق
العذب البارد ؛ أما الحَصْب فكثير الماء والعشب والخير وهي التي أوردتها
الديوان ولكنه كنى بها عن شدة البرودة (ص ١٠) ؛ والأولى أرجح عندنا

فالبليض السيوف ، وهي القدود والنساء على الاستعارة ايضاً ، وهذا من النادر الذي لا يتعلق أحد به . وقوله :

إذا الخيل جابت قسطل الحرب صدعوا

صدور العوالي في صدور الكتائب

فلفظ الصدور واحد والمعنى في الأول أعالي الرماح وفي الثاني مقدمة الجيش ، وقوله :

عامي وعام العيس بين وديقة مسجورة وتنوفة صيهود

حتى أغادر كل يوم بالفلأ للطير عيداً من بنات العيد

فالعيد فحل من خول الإبل . والعيد اليوم المعروف من الأيام .

ومن التجنيس غير التام الذي تساوت الفاظه في الوزن واختلفت في

التركيب بحرف واحد وقوله :

يمدون من أيدي عواص عواصم تصول باسياف قواض قواضب

ومنه في ما اختلفت الفاظه في الوزن والتركيب بحرف وقوله :

أيام تُدمي عيْنُهُ تلك الدُمى فيها وتقمّر لبّه الأَقمار

وقوله في البيت الثاني والرابع خاصة : (١)

أي ربع يكذب الدهر عنه وهو ملقى على طريق الليالي

بين حال جنت عليه وحول فهو نضو الأحوال والأحوال

أي حسن في الذاهبين تولى وجمال على ظهور الجمال

ودلال مخيم في ذرى الخية م وحجل معصم بالحجل

(١) لم يورد طابع الديوان البيتين الأولين (ص ٤٥٨) وأوردها ابن

الأثير في المثل السائر ص ١٠٢ ؛ وورد في الديوان كلمة (معذب) بدل (معصم) التي أوردها ابن الأثير .

وأبو تمام يكثر من التجنيس على اختلاف أنواعه وقد أحسن في طائفة
وأساء في غيرها ، ولتمدُّظن من التجنيس قوله :

أظن الدمع في خدي سيُبقي رسوماً من بكائي في الرسوم
وليس هذا بتجنيس لأن المعنى لم يختلف في كلمة الرسوم وهذا هو
المسمى « بالترديد »

وعُدَّ من أقسام التجنيس قوله : « وأنت لم لاتفهم ما يقال » لمن قال
له « لم لا تقول ما يفهم » وهو المسمى « بالمعكوس » .

المجازات والكنايات :

وإلى جانب الطباق والجناس اللذين أغرق فيهما أبو تمام نرى له
مجازات واستعارات وكنايات كثيرة ، فمن استعاراته الجميلة قوله :

لما غدا مظلماً الأحشاء من أشر أسكنت جانحتيه كو كباً يقدُّ

فاستعارة الكوكب للرمح استعارة لطيفة ، ومثله قوله في الاعتذار :

أسري طريداً للحياء من التي زعموا وليس لرهبة بطريد

وغدا تبين ما براءة ساحتي لو قد نقضت تهائمي ونجودي

استعار التهائم والنجود لباطن أمره وظاهره ، وقوله :

كم أحرزت قُضْبُ الهندي مصلته تهتز ، من قُضْبٍ تهتزي كُثْبُ

استعار القضب والكثب للتمدود والارداف ، وفي هذه القصيدة عن

انهزام ملك الروم في فتح عمورية قوله :

إن يعدُّ من حرها عدو الظالم فقد أوسعت جاحمها من كثرة الخطب

استعار الخطب للقتلى ، ومن أحسن استعاراته قوله في الغزل :

كُنْتُ أُرْعَى النجوم (١) حتى إذا ما فارقوني أُمِيت أُرْعَى النجوم

قد مررنا بالدار وهي خلاء فبكينا طولها والرسوما

وسألنا ربوعها فانصرفنا بسقام وما سألنا حكما

والاستعارة الجميلة في تشبيه الأوبة بالنجوم (أو البدور) في البيت الأول ،

ومن تشابهه الحسنة قوله :

أَيُّ مَرْعَى عَيْنٍ وَوَادِي نَسِيبٍ لِحَبَّتِهِ الْإِيَّامُ مِنْ مَلْحُوبٍ (٢)

يريد أنه كان كأنه مرعى العين ومرعى النسيب لجماله وطيبه ، ومن

هذه التشبيهات تشبيهه شيئا مادياً بشيء معنوي في قوله :

وَفَتَكَتْ بِالْمَالِ الْجَزِيلِ وَبِالْعَدَا فَتَكَتِ الصَّبَابَةُ بِالْمَحَبِّ الْمَغْرَمِ

ومن تشبيهه قوله وفيه تشبيه المركب بالمركب :

مَعِشْرُ أَصْبَحُوا حِصُونِ الْمَعَالِي وَدُرُوعُ الْإِحْسَابِ وَالْأَعْرَاضِ

فشبههم في منعهم المعالي من أن ينالها أحد سواهم بالحصون في منعها من

بها وحمايته ، ومنه قوله :

خَلَطَ الشَّجَاعَةُ بِالْحَيَاءِ فَأَصْبَحَا كَالْحُسْنِ شَيْبٍ لِمَغْرَمٍ بِدَلَالِ

وقوله وفيه تشبيه المركب بالمفرد :

يَا صَاحِبِي تَقْصِيَا نَظْرِي كَمَا تَرِيَا وَجُوهَ الْأَرْضِ كَيْفَ تَصَوَّرَ

تريا نهاراً مشمساً قد شابهُ زهر الرُّبَى فكأنما هو مقمر

فشبه النهار المشمس مع الزهر الأبيض بضوء القمر .

(١) في الديوان : (البدور) (٢) لِحَبَّتِهِ : وطئته ؛ ملحوب : مكان .

ومن كنياته قوله :

مالي رأيت ترابكم يبس الثرى مالي أرى أطوادكم تهدم
ويبس الثرى كناية عن تنكر الصداقة ، تقول : يبس الثرى بيني
وبين فلان ، إذا تنكر الود الذي بينك وبينه ، وكذلك تهدم الأطواد فانه
كناية عن خفة الحلوم وطيش العقول عند الامام الموصلي (ص ٢٤٩) .

التجسيم والتشخيص :

ويلاحظ الباحثة أن الصنعة البديعية تصاحب المعاني التي يوردها عن
طريق الاستعارة ، وهنا مجال الانتباه إلى أمر جديد في صنعة أبي تمام يظهر
لنا إذا أنعمنا النظر في قوله :

كلّ يوم له وكلّ أوان خلق ضاحكٌ ومال كئيب
فان فيه طباقاً بين الضحك والكآبة ، واستعارة في الخلق الضاحك ،
والمال الكئيب ، ونلمح فوق هذا أن الأمر المعنوي كالحلق أصبح شيئاً
محسوساً (مجسماً) .

وهذه الطريقة في (تجسيم) الامور والمعاني ، وجعلها في اطار المادة
الملموسة ، كبيرة الأثر في شعره ، وهي في أصلها استعارة يجعل الشاعر لها
حدوداً مادية مع براعة في التصوير ، ومثل ذلك ما تراه في قوله :

راحت غواني الحبي عنك غوانيا يلبسن نأياً تارةً وصدوداً
فانك تجد الجنس في الغواني ، والتجسيم في لبس النأي ولبس
الصدود ، كأنهما رداءان يلبسان ، وإلى جانب هذا التجسيم نوع شبيه
به ، وهو (التشخيص) أي افتراض الاشياء اشخاصاً لها خصائص الاحياء ،
من ذلك قوله في قصيدة ربيعية :

رقت حواشي الدهر فهي تمرمرُ وغدا الثرى في حليهِ يتكسر
 من كل زاهرةٍ ترققُ بالندى فكأنها عينُ إليك تحدرُ
 تبدو ويحجبها الجميم كأنها عذراء تبدو تارة وتحقرُ
 حتى غدت وهداتها ونجادها فثنتين في حلل الربيع تبخرُ
 فجعل الثرى كالعروس يتثنى في حليهِ ، والأزهار كالعيون تترقق بالندى ،
 والنبت الجميم الذي يعطي الأرض يحجب الزهر الذي يظهر تارة ويخفي أخرى ،
 والأرض تبخر في حلل الربيع ، وكل ذلك (تشخيص وتجسيم) لا يبعد عن
 الاستعارات ، ولكنه تصوير رائع ، واطهار للصور بين لاتكاد تخلو
 قصيدة من قصائد أبي تمام من أشباهه ، وإغراق الشاعر في هذه التجسيمات
 والتشخيصات بعده عن طريقة العرب الخالصة في الاستعارات ، فذكر
 الآمدى أن العرب تستخدم الاستعارة « فيما يقارب المشبه به ويدانيه أو يشبهه
 في بعض أحواله أو يكون سبباً من أسبابه فتكون اللفظة المستعارة حينئذ
 لائحة بالشيء الذي استعيرت له وملائمة لمعناه » ولكن أبا تمام لم يرتض هذا
 الحد لأنه كان يبتغي التجديد ، فجعل الاستعارات في صور موضوعة تحت
 الباصرة مشخصة أو مجسمة حية متحركة ، وقد ورد هذا النوع من قبل
 ولكنهم لم يغرقوا فيه اغراق أبي تمام ، وكان هذا الاغراق مثار استنكار
 لخروج الشاعر عن المألوف ، ولأن الوصول إلى هذه المعاني العميقة والغوص
 على الأشياء البعيدة يستتبع غموضاً في كثير من الأحيان ، وهو الغموض الفني
 الذي قد يعاب عليه بعض الشعراء ممن يعمدون إليه ، ولو أنصف الناس لرأوا
 خلف هذا نفساً قد عذبت لتصل إلى الوضوح فلم تفلح في بعض ما تريد .

الغموض والتأويل :

وكان أبو تمام إذا استعصى عليه المعنى ، وحر بصوغه ، جاء كلامه غير

مفهوم ، أو محتملاً للتأويل في وجوه متعددة ، ولذلك قال له أبو العميشل :
« لَمْ لَا تقول ما يفهم ؟ » فأجابه أبو تمام : « وأنت لماذا لا تفهم ما يقال ؟ »
ومن أجله قال أعرابي سمع شيئاً من شعره « في هذه القصيدة أشياء أفهمها ،
وأشياء لا أفهمها ، فإمّا أن يكون قائلها أشعر الناس ، وإما أن يكون جميع
الناس أشعر منه » *

هذه الطائفة من الناس لا تحب البحث عن المعنى ، والتعب في تفهمه ،
كما تعب الشاعر في إيجاده ، لأنها لم تألف العناية في الشعر ، وإنما كانت تراه
عملاً يرضى الذوق ، وينحدر الى السهولة ، وليس للعقل أيُّ عمل فيه ،
وذلك كله خلاف ما كان يذهب اليه أبو تمام ، إذ كان يعد صنعة الشعر عملاً
عقلياً متعباً ، يجب أن يرتفع الناس الى أفقه ، وأن يجهدوا أنفسهم للوقوف
على معانيه ، والكلمات عنده رموز تشير الى معان خلفها ، يجب على القارئ
ان يستشفها من ثنايا تلك الحروف ، فالشعر محتاج الى التدبر والتفكير
والتفسير ، وهذه الألفاظ ان هي إلا أوعية رمزية لأفكار هي المقصودة
بالذات ، ولذلك كان انصراف الشاعر الى المعنى أصل فنه ، وأساس تفكيره ،
ومن أجل هذا كانت له هنات خرج فيها عن مجرى الشعر العربي ، فانتقد
عليها انتقاداً شديداً ، لأن المعنى الظاهر في اللفظ السهل ، هو الأقوم في
عمود الشعر عند اولئك ، وكان أبو تمام يتمنى معهم لو يصح له اللفظ والمعنى
معاً فلم تكن عنايته باللفظ يسيرة ، ولكن المعنى يغلبه على نفسه أحياناً
فيؤثر جانبه ، وهو الأرجح عنده ، والصورة اللفظية أرجح عندهم ، فجاءته سهام
اللوم من هذا الاختلاف ، واشترك فيها الآمدى وغيره من كبار النقدة .
كل ذلك لا ينزل أبا تمام عن أحسانه في عمق التفكير ، كما لا يذهب
بحسناته في دقة التصوير ، وله فيها آيات باهرات منها قوله :

وَمُعَرَّسٍ لِلغَيْثِ تَحْفَقُ فَوْقَهُ رَايَاتُ كُلِّ دَجَنَةٍ وَطَفَاءِ

تُشْرَتْ حَدَائِقُهُ فَصَرْنَ مَا لَقَا طَرَائِفَ الْأَنْوَاءِ وَالْأَنْدَاءِ
 فَسَقَاهُ مَسْكُ الطَّلِّ كَافُورَ النَّدَى وَانْحَلَّ فِيهِ خَيْطُ كُلِّ سَمَاءٍ
 وَهُوَ فِي هَذَا يَشِيرُ إِلَى مَا يَمْلَأُ الْجَوَّ مِنْ عَطَرِ أَثَرِ الْمَطَرِ الْخَفِيفِ ، وَمَا
 عَلَى أَوْرَاقِ الزَّهْرِ مِنْ نَدَى كَأَنَّهُ الْكَافُورُ ، وَإِلَى تَسَاقُطِ الْأَمْطَارِ كَأَنَّهَا
 خَيْوُطُ السَّمَاءِ قَدْ انْحَلَّتْ ، وَفِي مَجْمُوعِ هَذَا تَصْوِيرٌ رَائِعٌ لَكِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى تَفْكِيرٍ
 جَدِي لَتَكْشِفَ عَنْ إِحْسَانِهِ ؛ وَهَذَا التَّصْوِيرُ قَدْ يَوْصِلُنَا إِلَى الْغَمُوضِ أَنْ
 بَعْدَتْ الصُّورُ ، وَرَبَّمَا حَمَلْنَا التَّفْكِيرَ عَلَى كَثْرَةِ التَّأْوِيلِ ، وَمِمَّا يَكُنْ مِنْ
 غَمُوضِ بَعْضِ نَوَاحِيهِ ، وَحَمَلِ الْمَفْكَرِينَ عَلَى كَثْرَةِ التَّأْوِيلِ ، فَانْهَ قَدْ جَعَلَ
 الَّذِينَ يَرِيدُونَ أَنْ يَسْتَمْتَعُوا بِالْمَعْنَى الرَّائِعِ ، هَانِئِينَ بِلَذَّةٍ جَدِيدَةٍ مِنْ إِعْمَالِ
 الْفِكْرِ ، وَبِذَلِكَ ظَهَرَتْ خَاصَّةً نَرَاهَا فِي كَثِيرٍ مِنْ شَعْرِهِ ، هِيَ كَثْرَةُ الْإِحْتِمَالَاتِ
 وَوُفُورَةُ التَّأْوِيلَاتِ ، وَأَصْبَحَتْ طَائِفَةٌ مِنْ شَعْرِهِ فِي حَاجَةٍ إِلَى الشَّرْحِ
 وَالْإِيضَاحِ ، وَلِذَلِكَ أَشَارَ الْعُلَمَاءُ إِلَى الْمَشْكِلِ مِنْ أَيْبَاتِهِ ، فَمِنْ ذَلِكَ مَعْنَى بَعِيدٍ
 فِي قَوْلِهِ :

وَلِهَتْ ، فَأَظْلَمَ كُلُّ شَيْءٍ دُونَهَا ، وَأَنَارَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ مَظْلَمٍ
 قَالَ الْمَرْزُوقِيُّ عَنْهُ : « لَمَّا جَزَعْتَ لِفِرَاقِهَا اشْتَدَّ جَزَعُهَا عَلَيَّ فَأَظْلَمَ كُلُّ شَيْءٍ
 فِي عَيْنِي سِوَاهَا وَمِنْ دُونِهَا ، وَبَانَ لِي وَوَضَحَ مِنْ مَكْتُومِ أَمْرِهَا وَمَكْنُونِ
 وَدَهَا لِي مَا كَانَ مَغْيِبًا عَنِّي وَمَظْلَمًا عَلَيَّ ؛ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى : ارْتَاعَتْ لَمَّا
 أَحْسَسْتُ بِالْفِرَاقِ وَتَوَلَّهْتُ فَأَلْقَيْتُ قَنَاعَهَا فَأَظْلَمَ كُلُّ شَيْءٍ دُونَهَا لِسَوَادِ شَعْرِهَا
 فَأَنَارَ كُلُّ شَيْءٍ مَظْلَمٍ مِنْ بَيَاضِ وَجْهِهَا ، وَالْأَوَّلُ أَوْضَحَ وَأَجُودُ »
 وَقَالَ التَّبْرِيزِيُّ : « وَقَدْ يُوَدَّى لَفْظُ الطَّائِي مَعْنَى آخَرٍ وَهُوَ أَنَّ الْأَشْيَاءَ
 أَظْلَمَتْ دُونَهَا أَيَّ غَيْرِهَا ، وَقَوْلُهُ وَأَنَارَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ مَظْلَمٍ أَيْ مِنْ حَسَنِهَا
 تَضْيِئُ الْأَشْيَاءَ الْمَظْلَمَةَ » .

ومن ذلك قوله وفيه ثقافة واسعة :

طال انكاريّ البياض ولو عُمُ
مرت شيئاً انكرت لون السواد
يقول المرزوقي : «يحتمل هذا البيت وجوهاً : أحدها ماقاله الاعرابي
لما استوصف حاله :

« كنت أنكر الشعر البضاء فصرت الآن أنكر الشعر السوداء »
والثاني : إن عُمُرت شيئاً ، اسودَّ من لوني وجلدي ما كان مبيضاً ،
فانكرته ، وهذا كما قال العريان بن الهيثم لما سأله عبد الملك عن حاله فقال :
« ابيضَّ مني ما كنت احب ان يسودَّ ، واسودَّ مني ما كنت احب ان
يبيضَّ ... في كلام طويل ... ثم قال : وكنت في شبابي ابيض اللون
زاهراً ، فصرت بعيد الشيب أسود حالكاً . »

والثالث : ان عُمُرت شيئاً أنست بالبياض وسكنت اليه حتى اكون
منكراً للسواد ، انكاري الساعة للبياض .
ومما يَحتمل التأويل قوله مادحاً :

بالشعر طول إذ اصطككت قصائده

في معشر ، وبه عن معشر قصر
وهو يحتمل تأويلين : احدهما ان الشعر يتسع محاله بمدحك ويضيق
بمدح غيرك ، يريد بذلك ان مآثره كثيرة ومآثر غيره قليلة ، والآخر ان
الشعر يكون ذا فخر ونباهة بمدحك ، وذا خمول بـ مدح غيرك ، فلفظة
الطول يفهم منها ضد القصر ، ويفهم منها الفخر من قولنا طال فلان على
فلان أى فخر عليه .

وقوله :

قد بلونا أبا سعيد حديثاً وبلونا أبا سعيد قديماً

ووردناه ساحلاً وقلبيّاً ورعيناها بارضاً^(١) وحمياً
 فعلمنا أن ليس إلا بشقّ الذّ نفس صار الكريم يدعى كريماً
 فالساحل والقلب يستخرج منهما تأويلان مجازيان : أحدهما انه اراد بهما
 الكثير والقليل بالنسبة الى الساحل والقلب (البئر) ، والآخر انه اراد بهما
 السبب وغير السبب ، فان الساحل لا يحتاج في ورده الى سبب (جبل)
 والقلب يحتاج في ورده الى سبب ، وكلا هذين المعنيين مجاز ، لان حقيقة
 الساحل والقلب هي في غير المعنى الوارد في هذا الكلام .

وقوله مادحاً :

هنالك يُلقى الجود من حيثُ قُطِّعَتْ

تمائمُه ، والمجد مُرخىّ الذوائب

واراد بتقطع التأمم للجود ، ان محل الممدوح هو مألّف الجود ومنشؤه
 ووطنه ، وقد يراد معنى آخر هو ان هذا الجود قد أُمنت عليه الآفات
 العارضة لغيره من المنّ والمطل والاعتذار أو غير ذلك ، لأن التأمم لا تقطع
 إلا عمن أُمنت عليه المخاوف .

فكل هذا التأويل دليل الغوص على المعانى ، وربما أدى هذا الى
 الغموض وعدم تبيين المعنى الا بعد الروية ، فمن ذلك قوله :

يتجنب الآثام ثم يخافها فكأنما حسناته آثام

يريد أنه يتجنب الآثام فيكون قد أتى بحسنة ، ثم يخاف تلك الحسنة
 فكأنما حسناته آثام .

(١) أول الغيث

الثقافة الواسعة :

والناظر في كثير من معانية العويصة يجد أصلها في ثقافته الواسعة فمن ذلك قوله :

وأخافكم كي تغمدوا أسيافكم إن الدم المغبرَّ يحرسه الدم
وفيه إشارة الى ما ورد عن العرب « القتل أنفى للقتل » وهى الجملة
التي لا تلحق بقوله تعالى : « ولكم فى القصاص حياة »

وآثار ثقافته الواسعة واضحة فى كل قصيدة من قصائده ، كأنما تأبى
عليه معارفه إلا أن تطل على القراء فى أجلى بيان ، وبحسبك أن تنظر فى
البائية التي قالها لفتح عمورية لترى ثقافته العربية الخالصة ، والإسلامية
الحنيئية ، والعباسية المترجمة من ضرب الأمثال ، ورجوع إلى سنن الإسلام
ومعرفة بالنجوم والأبراج والتاريخ وغير ذلك ، على أن للفلسفة والمذاهب
والنحل ، أكبر الأثر فى معانيه العويصة ، فكان مما تمثله منها مع ما
قدر عليه من حسن الصوغ خطوة جديدة هي مزجه بين الصنعة والفلسفة ،
وجعل النقيضين متجاورين أحسن جوار ، وبذلك كان أول من رفع
الحواجز بين الشعر والفلسفة ، فمن ذلك قوله الذي أوردناه من قبل (١) :

عمرى عظم الدين ، جهمي الهوى ينفي انقوى ، ويثبت التكليف
ومن ذلك استعماله للقياس المنطقي ، ولكنه قياس في يورده فى الرثاء
فيقول :

إن ريب الزمان يُحسن أن يهـ دي الرزايا إلى ذوي الاحساب
فإن هذا يحف بعد اخضرارٍ قبل روض الوهادروض الروابي

ويقول في الغزل معللاً تخديد وجهه وما فيه من تجعد :
لا تُنْكَرِي منه تخديداً تَجَلَّلَه فالسيف لا يُزْدَرِي إن كان ذا شطب
ولعل هذا البيت من أروع ما يتعزى به الشيوخ اللاهون .

نواح متعددة من فنه :

وإلى جانب ما مر من الكلام على فنه ، يجب ألاّ تغفل النواحي الكثيرة
الباقية من صنعته وامتداد عبقريته ، فمن ذلك ما نرى من التزامه ما لا يلزم
في روي القافية ، وقد يكون بذلك قد ألهم المعرّي طريقته المعروفة في
(لزوم ما لا يلزم) وفيها يقول أبو تمام ملتزماً الدال مع الميم :

خدم العُلا فخدمته وهي التي لا تخدم الأقوام ما لم تُخدم
فاذا ارتقى في قلة من سؤدد قالت له الأخرى بلغت تقدم
ومثله قوله في التزام الصاد مع الدال :

ولو جرّبتني لوجدت خرقاً يصافي الأكرمين ولا يصادي (١)
جديراً أن يُكرّ الطرف شزراً إلى بعض الموارد وهو صاد
ومن إحسانه في صنعه ما عُدّ له من المطالع الحسنة التي تنكب فيها عن
طريقة الأقدمين فقال في عمورية :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
ومثله مطلع قصيدته التي يذكر فيها خروج بابك الخرمي وظفر الخليفة به :
الحق أبايجُ والسيوف عوار فحذار من أسد العرين حذار

(١) الحِرْق : السخي أو الظريف . يصادى : يعارض . الشزر :
الازورار . صادي : عطشان . وفي الديوان (ولو كَشَفْتَنِي) بدل
(جربتني) ص ٨١ .

ومما جاء به في مطالع الغزل الحسنة :

عسى وطن يدنو بهم ولعلما وإن تعبت الأيام فيهم فرما
ومن مطالعه الحسنة في الرثاء :
أصم بك الناعي وإن كان أسمعاً وأصبح مغنى الجود بعدك بالقعما
وكان من طريقته في النظم أن يحسن التخلص حيناً كقوله :
يقول في قومسٍ صحتي وقد أخذتُ

منا السرى وخُطى المهرية القود
أطلع الشمس تبغي أن تؤمّ بنا

فقلتُ كلاً ولكن مطلع الجود
وهذا من بديع ما يأتي في باب التخلص . ومثله في الحسن قوله يصف
الربيع ويتخلص إلى المديح :

خلق أطل من الربيع كأنه خلق الامام وهديه المتنشر
في الأرض من عدل الامام وجوده

ومن النبات الغض سرج تزهر

تنسى الرياض وما يروض فعله أبدأ على مر الليالي يذكر (١)
وهو من أطف التخلصات وأحسنها ، ومثله قوله في مدح أبي دلف :

غيداء جاد ولي الحسن سنتها فصاغها بيديه روضة أنفا

يضحي العذول على تأنيبه كلفاً بعذر من كان مشغولاً بها كلفاً

ودّع فؤادك توديع الفراق فما أراه من سفر التوديع منصرفاً

(١) المتنشر : المنشور . يروض : ينشئ الرياض أو يلزمها .

تجاهد الشوقَ طوراً ثم تجذبه
وقوله :

زعمتُ هو الكعابُ الغداة كما عفت
لا والذي هو عالم أن النوى
ما حلتُ سنن الوداد ولا غدت
وهذا خروج من غزل إلى أغزل منه .

وقد يعمد إلى الالتفات فلا يتخلص كأن يتكلم عن الغائب ثم يلتفت
إلى خطاب نفسه فيقول :

يُري بالكعاب الرود طلعةً ثائر
و بالعِرمس الوجناء غرة آيب
كأن بها ضغنًا على كل جانب
من الأرض ، أو شوقًا إلى كل جانب
إذا العيس لاقت بي أبادلف فقد
تقطع ما بيني وبين النوائب
هنالك تلقى الجود من حيث قطعت
تمائمها ، والمجد مرخي ' الذوائب ' (٢)
فلما صار إلى مشافهة الممدوح خاطب نفسه ثم عدل عن خطاب نفسه
إلى خطاب غيره ، وهو التفات حسن .

وله في المؤاخاة بين الألفاظ في المباني قوله في وصف الرماح :

مُثَقَّاتٌ سلبن العرب سمرتها
والرؤم زرقتها ، والعاشق القُضفا

(١) في الديوان : يجاهد الشوق طوراً ثم ترجعه

مجاهداتُ القوافي في أبي دلفا

(٢) في الديوان (المجد) بدل (الجود) . الكعاب الرود : البارزة النهـد ،
الليـنة . العرمس : الناقة الشديدة .

فذكر لجانب كل لفظ ما يؤاخيهِ ، فالسمرة للعرب ، والزرقة الروم ،
والقُضف للعاشق (١).

وله في مقابلة المفرد بالمفرد ، أي إيراد اللفظ في صدر الكلام ثم إعادته
فيما يحتاج إلى جواب ، قوله :

بسط الرجاء لنا ، برغم نوائب كثرت بهن مصارع الآمال
فذكر الرجاء في صدر البيت وذكره أيضاً في عجزه بلفظ الآمال ،
واستعمال اللفظة في معنى آخرها يصح في المقابلة بينها .
ومن تقسيمه الحسن المستوفي الأجزاء قوله :

جمعت لنا فرق الأمان منكم بأبر من روح الحياة وأوصل
فصنيعة في يومها ، وصنيعة قد أحولت ، وصنيعة لم تحول
كالمن من ماضي الرباب فمقبل متنظر ، ونخيم متهلل
ومن تقسيمه أيضاً قوله :

وموقف بين حكم الذل منقطع صاليه ، أو بحبال الموت متصل
فقصده أبو تمام الغلو في وصف الموقف فقال إن الناس أحد رجلين إما
ذليل عن مورده ، وإما هالك فيه ، أي أنه لا ينجو منه أحد ، وهذا من
التقسيم الصحيح .

ومن مجال صنعته ترتيب التفسير في تقديم المقدم وتأخير المؤخر ، وذلك
بذكر معان تفسر ما قبلها بصورة مرتبة يراعى فيها تقديم المعنى الذي له

(١) كان أجمل بالبيت لو ذكر الشاعر (العشاق) جمعاً لأنه ذكر
العرب والروم وكل منها جمع ، ولو ذكر (قضفها) أي دقتها لكان أوقع
إذ ذكر (سمرتها) و (زرقتها) بإضافة كل إلى ضميره .

علاقة بالكلام المتقدم وتأخير المعنى الذى له علاقة بالكلام المتأخر ، وقد قال فى ذلك :

وكان لهم غيثاً ، وعلماً ، فعدم فيسأله ، أو باحث فيسأله *
فقدم المعدم لمناسبته مع الغيث المتقدم ، وأخر الباحث لمجيء العلم بعد
الغيث . ومثله قوله :

وما هو إلا الوحيُّ أو حدُّ مرهفٍ مُتميلُ ظُباهِ اخدعي كلَّ مائلٍ
فهذا دواءُ الداءِ من كلِّ عالمٍ وهذا دواءُ الداءِ من كلِّ جاهلٍ
وله فى تأكيد المنفصل بالمنفصل قوله :

لا أنت أنت ولا الديار ديارُ خفَّ الهوى وتولت الأوطارُ
وهذا من المליح النادر . وله فى التشطير قوله :

تدبير معتصم ، بالله ، منتقم ، لله ، مرتغب ، فى الله ، مرتقب
وقوله :

نجوم طواليع ، جبال فوارعُ غيوث هواميعُ ، سيول دوافع
ومن إطنابه الحسن الرائع قوله :

زكى سجاياه تُضيف ضيوفه ويرجى مرجيه ويسأل سائله
أراد أن يصفه بالكرم فوصفه بصفات متعددة فجعل ضيوفه تضيف ،
وراجيه يرجى ، وسأله يسأل وهو إطناب حسن .

ومن التكرير الذى جاء فيه المعنى مضافاً إلى نفسه مع اختلاف اللفظ قوله :
نهوض بثقل العبء ، مطلع به وإن عظمت فيه الخطوب وجلت
فالثقل هو العبء ، وإنما أراد المبالغة فى تحمل الأعباء .

ومن الاعتراض الجميل « وخير القول أصدقه » من قوله :
وددت رونق وجهي فى صحيفته ردَّ الصَّقالِ بهاء الصَّارمِ الخدمِ

وما أبالي، وخيرُ القول أصدقُه، حقنت لي ماءً وجهي أم حقنت دمي
ومن كلماته الجامعة التي لا يؤتى بمثلاً إيجازاً قوله :

كم صارمٍ غضب أناف على فتى منهم ، لأعباء الوغى حمالٍ
سبق المشيب إليه حتى ابتزّه وطن النهى من مفرقٍ وقذالٍ
وكلمة « وطن النهى » من الكلمات الجامعة وهي كناية عن الرأس
وقلما يجاء بمثلاً في معناها مما يسد مسدها .

وبعد فإذا جمعنا كل ما مر بنا من الخصائص في فن أبي تمام من محسنات
لفظية ومعنوية إلى إكثاره من الاستعارة والتجسيم والتشخيص ، والرمز
عن الآراء بالكنايات ، وحسن أداء ثقافته العلمية والفلسفية ، وما ابتكره
من المعاني ، إلى جزالة اللفظ وشدة أسره ، وحسن رونقه استطعنا أن
نتبين محله الرفيع في الأدب العربي كشاعر ملهم ، وعبقري مجدد .

وما يضير عبقريته هذه ، الروية والإبطاء في الصوغ والاجتهاد للنفس ،
فقد قيل : « إن تسعة أعشار العبقرية تعب وعرق » ولكنها لا تكون عبقريةً
حقيقيةً إن خلت من الإلهام ؛ وشاعرية أبي تمام لم تخل من هذا العنصر الكريم .
ونستطيع بعد هذه الجولة في صنعة الشاعر أن ندرك أى معنى كان
يقوم في نفس أبي تمام حينما سأله خادمه الفتح عن دِعل الخزاغي فقال له
أبو تمام : « دِعل بن علي هو الذي يقول :

لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكي
كأنه أقام هذه الصنعة مقام النسب ، ولم يتعرض لما كان بينها من تقاطع ؛
كل ذلك في سبيل روعة الفن .

وندرك بعدئذ مغزى كلمة إسحاق الموصلي لأبي تمام حينما سمعه ينشد
شعراً يشهد فيه على نفسه بالصنعة : « يا هذا لقد شققت على نفسك ، إن
الشعر لأقرب مما تظن » .

آفاق عبقرية

المديح :

غني أبو تمام ونال المكانة الرفيعة عند العظماء بفضل اماديجه ، وهي اعظم شعره ، وقد قصد بها الخلفاء والأمراء ، وتكسب بها ، ولكنه لم يسفّ ولم يستجد ولم يتبدل ، وكان من سعادة الرجل ان يقول فيه أبو تمام شعراً قوياً خالداً ؛ ولاماديح شاعرنا صفات عامة وصفات خاصة :

اما العامة منها فما عرفنا من انواع صنعته وتفننه في الاستعارات والتشبيه واقرباسه من ثقافته الواسعة ، وعلوم عصره المتعددة .

واما الخاصة منها فما تتميز به كل قصيدة من مزايا تتعلق برجل له صفاته وسجاياه ، بحيث اننا نستطيع ان نحدد الشخصية التي قيلت فيها تلك القصيدة . واعظم اماديحه قصيدته في فتح عمورية وقد حضر الموقعة مع المعتصم ، ورأى نصره الاسلام وانهزام الروم ، وشهد عزة المنتصر وذلة المغلوب ، فوصف ذلك بابلغ اسلوب .

بدأ القصيدة بدءاً جديداً ، لم يقف فيها على طلل ، ولا تحدث عن خمر ، وانما عمد الى الحكمة فجعلها مستهل الكلام .

وكان شأنه في مطالع غيرها أن يقلد المتقدمين ، تارة ، في المعاني البدوية من صفة الديار والحنين لاهلها الراحلين ، ثم ينتقل الى المديح اقتضاباً واستدراجاً حسناً . وكان تارة ثانية يعتمد الى وصف الطبيعة او الخمر او الحكمة ثم

يتخلص الى المديح ، وكان احياناً يهجم على المديح دون ان يقدم بين يديه توطئة توصله الى غرضه .

والنما اختار الحكمة وضرب الأمثال مستهلاً لمديح المعتصم في عمورية، لجلال الموضوع ، وعظم الفتح فجاء جولاته الرائعة في ثقافة وصناعة وطبع ، وجاء بمعان رفيعة تربط اجزاء القصيدة ربطاً محكماً ، مع قوة الاسر وجزالة الكلام ورصانة الاسلوب ، واتساق الافكار والتتابع المنطقي .

وهو في هذه ، كما في غيرها ، ينفحك بالفوائد التاريخية ويعين لك الأحداث والأماكن ويذكر الاسماء ، ويسرد العادات الملتزمة ، والأخلاق المألوفة ، والمعتمدات السائدة ، ، ويظهر العواطف الدينية ، والعزة العربية ، ويقارن بين المعارك كموقعة عمورية وموقعة بدر ، فيوجد بينهما نسباً كريماً ، ويبين عظم الفتح ، وكثرة السبي ، وتطور الحرب ، ويصف استعار الحريق ، ويصور الأماكن المهدامة ، وما عليها من القتلى ، ويدل على اعتقاد العامة بأصح الأزمان للحروب ، ويشير إلى عظم العمل المدحوظ عليه فاعله ، ولا يخلى الكلام من تصوير للحياة الغابرة ، بدوية وحضرية ، ودلالات على الترف العباسي ، والدلائل المستفيضة .

هذا إلى ما ينشر أثناء الكلام من حكم وأمثال وما يرتضيه من مبالغات في بعض الأحيان ، وما يأتي به من استشهادات وإشارات إلى ثقافات يونانية أو بابلية أو فارسية كالاسكندر وعلم النجوم ، كل ذلك في تسلسل غالب ومنطق صائب وإحكام واحسان حمل الناس على ان يشهدوا له بالتقدم في المديح

واما مديحه في معظمها تؤيد دولة بني العباس ، وتشي على ساستهم ومكاتهم واعمالهم ، وان لم يخل الشاعر من هوى إلى العلويين ظهر في قصيدة قالها دون العشرين ، فيها :

جعلت هواي الفاطميين زلفة إلى خالقي ما دمت أودام لي عمر

ومنها في الدلالة على عمره :

وإن الذي أحذاني الشيب للذي

رأيت ولم تكمل لي السبع والعشر

وصفوة القول ان عبقرية ابي تمام ، وصدق لمجته الغالبة في المديح ،
وبعضاً من مبالغاته تظهر في اماديجه ، ولن يعرفك عليها مثل دراستها في
نصوصها ، وقراءتها في روية ، كالتى كان يأخذ بها ابو تمام نفسه ، فمن رائع
مديحه قوله في المعتصم :

السيفُ أصدقُ أنباءٍ من الكتبِ	في حَدِّه الحدُّ بين الجِدِّ واللَّعبِ
بيضُ الصَّفائحِ لاسودَّ الصِّحائفِ في	متونهنَّ جلاءُ الشكِّ والرَّيبِ
فتحُ الفتوحِ تعالى أن يُحيطَ به	نظمٌ من الشعرِ أو نثرٌ من الخطبِ
فتحُ تَفَتَّحِ أبوابُ السماءِ له	وتبرُّزُ الأرضِ في أثوابها القشْبِ
يا يومَ وقعةِ عمورية انصرفت	عنكَ المني حُملاً معسولةَ الحلبِ
أبقيتَ جدَّ بني الإسلامِ في صُعدٍ	والمشركين ودارَ الشركِ في صِعبِ
وبرزة (١) الوجه قد أعيَتْ رياضُها	كسرى وصدت صدوداً عن أبي كَرَبِ
من عهد اسكندر أو قبل ذلك قد	شابت نواصي الليالي وهي لم تشبِ
بكرٍ فما افتَرعتها كفُّ حادثةٍ	ولا ترقَّتْ إليها همةُ النوبِ

(١) البرزة : الحيَّه التي لا تظهر للرجال ، وقيل التي تظهر ؛ ومع
كلٍ فهي ممتعة . قيل إن كسرى حاول فتحها .

جَرى لها الفألُ نحساً يومَ انقرة

إِذْ غودرتُ وحشةُ الساحاتِ والرَّحَبِ

تَدِيرُ معْتَصِمٌ بالله، مُنْتَقِمٌ
لَمْ يَغْزُقُوا وَلَمْ يَنْهَضْ إِلَى بَلَدٍ
لَوْ لَمْ يَقْدُ جَحْفَلًا يَوْمَ الْوَعَى لَعَدَا
رَمَى بِكَ اللَّهُ بُرْجِيَهَا فَهَدَمَهَا
مِنْ بَعْدِهَا أَشْبَوْهَا وَاثْقَيْنِ بِهَا
وَقَالَ ذُو أَمْرِهِمْ لَا مَرْتَعٌ صَدَدُ
أَمَانِيًّا سَلِمَتُهُمْ نُبْحَ هَا جَسِبَهَا
إِنْ الْجُمَامَيْنِ مِنْ بَيْضٍ وَمِنْ سُمرِ
عَدَاكَ حَرُّ الثَّغُورِ الْمُسْتَضَامَةِ عَنْ
خَلِيفَةِ اللَّهِ جَازَى اللَّهُ سَعِيكَ عَنْ
بَصُرَتْ بِالرَّاحَةِ الْكُبْرَى فَلَمْ تَرَهَا

إِنْ كَانَ بَيْنَ صُرُوفِ الدَّهْرِ مِنْ رَحِمِ

مَوْصُولَةٍ أَوْ ذِمَامٍ غَيْرِ مُنْقَضِبِ

(١) يَقُولُ شَوْقِي :

أَعِدَّتِ الرَّاحَةَ الْكُبْرَى لِمَنْ تَعْبَا وَفَازَ بِالْحَقِّ مَنْ لَمْ يَأْلُهُ طَلِبَا

فبين أيامك السلاقي نُصِرْتَ بها

وبين أيام بدر أقرب النسب

أبقت بني الأصفر المراض كاسمهم

صُفِرَ الوجوه وجأت أوجه العرب

الرشاء:

والناحية الثانية التي جود فيها هي هذه الناحية المشبوبة العاطفة ،
العميقة الشعور ، ظهر فيها ابو تمام في توجع مغرق ، وتلهف شديد ،
ومبالغة معروفة عند غيره من قبل ، لكنه كان اصدق فيها بياناً ، وادل
حزناً ، فاذا كانت الشموس تأفل ، والظلام يعم ، والويل يأخذ بمخائق
الناس ، في كلام سواء ، دون ان تحس ان ذلك صادر عن اعماق النفس ،
ومن غير ان تشعر بصدق العاطفة ، فقد كانت هذه المعاني عند ابى تمام
اكثر تأثيراً في النفوس ، حتى انها لتشعرنا باللوعة تحزّ في قلبه حزاً ، وبالحرق
تلدع فؤاده لدعاً ، فتحويله للخطب النازل ، وتفجعه على الفقيد الراحل ،
ربما كان اثرأ لما في نفسه من الالم ، وصدى لما يشعر به قلبه المرهف
الشعور ، واذا صح ان نفسه كانت متألّمة ، فان هذه المراثي لم تكن غير فرص
للإبانة عن عواطفه ، وصور لحبء نفسه ، الدفين عن عيون الناس .

وقد كان يعتمد على التصوير والتلوين في مراثيه ولا يخلّيها — الا
قليلاً — من حكم وامثال وافكار دينية ، تستلزمها المصيبة في عظم هولها ، وكان
اعتماده فيها على التهويل اكثر من عنايته بالمواعظ والتأسي ، ولذلك كان يبتديء
المراثي بفداحة الخطب وعظمه ، وهو اذا شارك غيره من الشعراء في تعظيم
المصاب الذي يصح ايراده لكل قعيد ، فانه لم ينس ان يورد في مراثيه صفات

خاصة بالذين رثاهم، بحيث تتعرف الى خصائصهم، او نستفيد شيئاً عن اعمالهم البارزة في حياتهم، وفوق هذا تجد صنعتهم تزين ما يقول .

ولعل افضل مرآته ما قاله في محمد بن حميد الطوسي الذي بعث به المأمون لتأديب بابك الخرمي سنة ٢١٤ هـ، وقد ثبت في القتال حتى لم يبق معه الا رجل واحد، ثم قتل شهيداً وفي ذاك يقول ابو تمام :

كذا فليجلّ الخطبُ وليفدحِ الأمرُ

فليس لعين لم يفض مأوها عذرُ (١)

تُوفيت الآمالُ بعد محمد

وأصبح في شغل عن السفر السفر

وما كان إلا مال من قلّ ماله

وذخراً لمن أمسى وليس له ذخِر

وما كان يدري مجتدي جودِ كفه

إذا ما استهلّت أنه خُلق العسر

ألا في سبيل الله مَنْ عَطَّتْ له

فجّاج سبيلِ الله وانتغر الشجر

(١) قوله (كذا فليجل الخطب) يفيد ظاهر لفظه أن كل خطب يجب

أن يكون كهذا إذ لا يقال (كذا فليكن) إلا في السرور؛ وإنما يريد أبو تمام تهويل الخطب وأن كل خطب دون ذلك لا يعد خطباً .

فَتَى كَلَّمَا فَاضَتْ عَيُونُ قَبِيلَةٍ

دَمًا، ضَحَكَتْ عَنْهُ الْأَحَادِيثُ وَالذِّكْرُ

فَتَى دَهْرُهُ شَطْرَانِ فِيمَا يَنْوِبُهُ

فِي بَأْسِهِ شَطْرُهُ وَفِي جُودِهِ شَطْرُ

فَتَى مَاتَ بَيْنَ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ مَيِّتَةً

تَقُومُ مَقَامَ النَّصْرِ إِنْ فَاتَهُ النَّصْرُ

وَمَا مَاتَ حَتَّى مَاتَ مُضْرَبٌ سَيْفِهِ

مِنَ الضَّرْبِ وَاعْتَلَّتْ عَلَيْهِ الْقَنَا السَّمَرُ

وَقَدْ كَانَ فُوتُ الْمَوْتِ سَهْلًا فَرَدَّهُ

إِلَيْهِ الْخِفَاضُ الْمُرُّ وَالْخُلُقُ الْوَعَرُ

وَنَفْسٌ تَعَافَ الْعَارَ حَتَّى كَأَنَّهَا

هُوَ الْكَفَرُ يَوْمَ الرَّوْعِ أَوْ دُونَهُ الْكَفَرُ

فَأَثْبَتَ فِي مُسْتَنْقَعِ الْمَوْتِ رِجْلَهُ

وَقَالَ لَهَا مِنْ تَحْتِ أَخْمَصِكَ الْحَشَرُ

غَدَا غَدَاةٌ وَالْحَمْدُ نَسَجُ رَدَائِهِ

فَلَمْ يَنْصَرَفْ إِلَّا وَأَكْفَانَهُ الْأَجْرُ

تَرَدَّى ثِيَابَ الْمَوْتِ حُمْرًا فَمَا دَجَا

لَهَا اللَّيْلُ إِلَّا وَهِيَ مِنْ سُندُسٍ خُضِرُ

كَأَنَّ بَنِي نِهَانٍ يَوْمَ وَفَاتِهِ

نَجُومُ سَمَاءٍ خَرَّ مِنْ بَيْنِهَا الْبَدْرُ

يُعْزَّوْنَ عَنْ ثَاوٍ تُعْزَى بِهِ الْعُلَا

وَيَبْكِي عَلَيْهِ الْبَأْسُ وَالْجُودُ وَالشَّعْرُ

ثَوَى فِي الثَّرَى مَنْ كَانَ يَحْيَا بِهِ الثَّرَى

وَيَغْمُرُ صَرْفَ الدَّهْرِ نَائِلُهُ الْغَمْرُ

عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَقَفَا فَيَا نَتِي

رَأَيْتَ الْكَرِيمَ الْحَرَّ لَيْسَ لَهُ عَمْرُ

وهي من اخلد الشعر ، حتى قال الامير ابو دلف العجلي لابن تمام عنها

« وددت والله أنها لك في ... إنه لم يمت من رثي بهذا الشعر » .

ومراثي أبي تمام قليلة بالنسبة لامادحها ، وكثيرون اولئك الذين نعموا

بمدحها أحياء ولم ينعموا برثائه أمواتاً ، كلما مومن والمعتصم وقد يكون ذلك

لأن تهنئة متقلد الخلافة - كالوائق بعد المعتصم - أحب إلى النفس من ذكر

الموت والبلى ؛ وما زال الحي أفضل من الميت ، كما يقول المتشبهون بأذيال

الحياة ، ومن أجل ذلك عزى بالمعتصم وهناً الواثق في وقت واحد .

أما أحباؤه وأنسابؤه وأصدقائه فهم الذين كان لهم القسط الوفير من

رثائه ، وهنا تتجلى حقيقة الود والوفاء وأصل العاطفة ، التي جعلت منه

« نواحة » مبدعاً . فتراه يبكي بقلب منفطر حينما يرثي ولده أو أخاه ،

ويبكي بفكر معجب ، ورجولية متماسكة ، حينما يرثي عظيماً من العظماء .

ونستطيع بعد هذا أن نعلم الباعث الذي جعل البحري يقول: «أبو تمام
مداحة نواحة» .

الوصف :

ولقد مر أن أبا تمام شاعر مصور، رائع التصوير ، وأنه كثيراً ما يعتمد
على التجسيم والتشخيص في إظهار معانيه وإبراز تصاويره ، وكانت الصنعة
البديعة أبرز شيء في هذه الصور، إذ تلونها بألوان زاهية تحببها إلى النفوس،
استمع إليه وهو يصف الربيع فيقول وفيه صنعة وتشخيص ظاهران :

رقت حواشي الدهر فهي تمر مرٌ وغدا الثرى في حليه يتكسر
نزلت مقدمة المصيف حميدةً ويدُ الشتاء جديدة لا تنكر
فهو يجعل أطراف الدهر وحواشيه رقيقة رجراجة ، ويخيل إليه أن
الثرى عروسٌ أثقلتها الحلي فهي تتشى وتتايل ، وأن هذه المقدمة اللطيفة
للصيف، وهي الربيع حميدة مرضية ، بعد أن كان الشتاء ذا نعمة لا تجحد ؛
ويسترسل الشاعر في وصف الربيع فيصور ويلون ويشبه ويقول :

يا صاحبي تقصّيا نظريكما تريا وجوه الأرض كيف تصوّر
تريا نهاراً مشمساً قد شابه زهرُ الربيع فكأنما هو مُقمر
من كل زاهرة ترقرق بالندى فكأنها عينٌ إليك تحدرُ
تبدو ويحجبها الجيم كأنها عذراء تبدو تارةً وتخفرُ
حتى غدت وهداها ونجادها فتين في حلّ الربيع تبخرُ
مصفرةً حمرةً فكأنها عصبٌ تيمّن في الورى وتمضّرُ

من فاقع غصّ النبات كأنه دُرٌّ يُشَقَّقُ قبلُ ثم يُزَعْفَرُ
أرأيت إلى هذا الوصف التصويري الرائع للنهار الذي تختلط فيه
أشعة الشمس بالزهر فتحسبه ليلاً مقمراً ، ولعيون الزهر التي يترقرق
فيها الندى ، وكيف تبدو ثم يحجبها النبات الكثير فتخالها بكراً تختفي
وتظهر ، ولتلك الملابس التي تختال فيها النجاد والوهاد ، ولتلك الألوان
المختلفة التي تشبه عصائب اليمن الصفر ، أو المضربة الحمر ، أو ما يشب من الدر .
واستمع إليه بعدئذ يصف الشب ويذكر لك شيئاً من الدور والتسلسل
الفلسفي في ثالث الأبيات إذ يقول :

أصبحت روضة الشباب هشيماً وغدت ريحه البليل سموماً
شعلة في المفارق استودعتني في صميم القواد تُكلاً صمياً
يستثير الهموم ما اكنن منها صعداً وهي تستثير الهموماً
وهكذا تجد أبا تمام يصف كل ما يخطر للشاعر أن يصفه من طبيعة وحرب ،
وحريق ، وخيل ، وإبل ، ونساء ، وغلمان ، وشيب ، وشراب ، وكان حيناً
يفرد للوصف قطعاً أو أراجيزاً أو قصائد خاصة ، وأنا يدمج الوصف في صلب القصيد .
وما كان يخلي في هذا أو ذاك أوصافه من عمل عقلي ، قد يحده عن
الانطلاق في سماء الخيال كما يظن بعضهم ، ولكن في كنه هذا العمل
تسريحاً للخيال وذهاباً إلى الأعماق من الفكر ، ذلك أنه كان يقرب
الصورة فما يزال يتناولها حتى يأتي على كل ما يمكن أن يوجد فيها من معنى ،
وهذا عمل عقلي وخيالي في وقت معاً ؛ انظر إلى وصف الحريق كيف
قلّب الفكر فيه واستوفى المعنى فقال :

لقد تركت أمير المؤمنين بها للنار يوماً ذليل الصخر والخشب

غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحىً يَشْلُهُ وسطها صبحٌ من اللهب
حتى كأنَّ جلابيب الدجى رغبت عن لونها ، أو كأنَّ الشمس لم تغب
ضوءٌ من النار والظلماء عاكفةً وظلمةٌ من دخانٍ في ضحىٍ شحب
فالشمس طالعةٌ من ذا وقد أفلت والشمسُ واجبةٌ من ذا ولم تجب

فهو لم يكتف أن يقول للمعتصم إنك جعلت الليل نهاراً ، واتخذت
صبحاً من اللهب يطرد الظلام ، حتى عاد فقال كأن ثياب الليل الدكن قد
كرهت لونها الأسود ، أو كأن الشمس ما زالت مائعة في السماء ، وعاد
وتوسع في المعنى فقال إن هذا نور ولكن مصدره النار في ظلمة شاملة
للكون ، وإن هذه الظلمة مصدرها دخان يرتفع في صباح شاحب اللون .

فهذا التقلب للمعنى لم يدع الخيال فيه فكرة لم يستوفها بيانه ، ولا
سبيل لذكر أما كن إبداعه في الوصف ، وإحسانه في الرصف ، وقراءة
كثير من نصوصه خير مرشد لخصائص وصفه إذ تقفنا على كثير من الغريب ،
وشيء من الغموض ، عرفناه في غير هذا الموضع أيضاً .

وإذا كان الجاحظ من أقدم من وصف الكتاب في النثر ، فإن شاعرنا
من أقدم من وصف القلم وصفاً مجسماً مشخصاً في الشعر ، فقال لمحمد بن عبد
الملك الزيات الوزير :

لك القلمُ الأعلى الذي بشباته تُصاب من الأمر الكلي والمفاصلُ
فصبحُ إذا استنطقته وهوراكب وأعجمُ إن خاطبته وهو راجل
وكان من سبل الوصف عند أبي تمام أن يجعله توطئة لأمر ينتقل إليه ،
وله في هذا ناحية أبدع فيها وكان السابق إليها ، وهي ناحية الاستطراد ،
ومعنى ذلك أن يوهم السامع أنه يريد وصف شيء وهو يريد شيئاً آخر ،

من ذلك أنه بدأ قصيدة وصف فيها الفرس ، حتى إذا انتهى إلى وصف حافره
قال : إنه من صخر تدمر ؛ ثم فاجأ القارئ وقال : أو هو من وجه المهجو
فلان ، فهذه القفزة استطراد تبعه غيره فيه فقال أبو تمام :

وسابح هطل التعداء هتّانِ على الجراء أمين غير خوانِ
فلوتراه مُشيجاً والحصى زيمٌ بين السنايك من مثني ووحدانِ
أيقنت إن لم تثبت أن حافره من صخر تدمر أو من وجه عثمانِ
وتبعه البحري في قصيدة يصف فيها الفرس مطولاً ثم هجا فقال :

وأغرّ في الزمن البهيم محجلٌ قد رحتُ مه على أغرّ محجل
ما أن يعاف قذّي ولو أوردته يوماً خلائق حمويه الأحول
وحينما لاهوا البحري لاحتدائه في شعره صنع أبي تمام قال : « أيعاب
عليّ أن أتبع أبا تمام وما عملت بيتاً قط حتى أخطر شعره في بالي ! »
ولكن البحري كان قد أسقط بيت الهجاء من ديوانه وان أثبتته كثير
من النساخ (الصولي ٧٠) .

الحكمة :

✓ تجمعت ثقافة أبي تمام المتعددة ، وتجاربه على الأيام ، وتفكيره في شؤون
الحياة ، فكانت حكمة رائعة ، عذبة الصوغ ، محكمة الصنع ، فنثرها في شعره
ما بين مديح وورثاء ، ووصف ونسيب ، فلم تكد تخلو قصيدة له من فكرة
بارعة ، أو حكمة رائعة ؛ استمع إليه وهو يتحدث عن جيش المعتصم وقد
ترفع عن المادة واستهدف الفتح فقال :

إن الاسود أسود الغاب همّها يوم الكريهة في المسلوب لا السلبِ

وأصنع إليه يحدثك عن تجاربه في الأيام بعد أن خبر حلوها ومرها وهو يقول:
لقد جربتُ هذا الدهر حتى أفادتني التجارب والعناء
فلقد علمته التجارب أن من البلاء ما يكون نعمةً ، ومن النعم ما يكون بلاءً ،
فكانما يشير إلى قول الله تعالى : « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ،
وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم » (البقرة - ٢١٦) كأنه يشير إلى
هذا حينما تملي عليه ثقافته وتجاربه وتفكيره قوله :

قد يُنعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلي الله بعض القوم بالشُّخْم (١)
ورأى الأيام حرباً على الكرام ، تنالهم بالأسواء ، ويعتصمون بالعزة
والكرامة والإباء فقال :

لا تُنكري عَطلَ الكريم من الغنى

فالسيلُ حربٌ لأمكانِ العاليِ

وساء أن يتنكر الصحاب بعضهم لبعض ، بسبب خير يصيبه فريق دون
آخر فقال :

أولى البرية طراً أن تواسيه

عند السرور الذي واساك في الحزنِ

إن الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا

من كان يألفهم في المنزل الخشنِ

(١) يقول الامام البوصيري في قصيدته البردة :

واخش الدسائس من جوع ومن شبع فرب محضه شرٌّ من التخم

✓ وعز عليه أن تكون الأخلاق الاجتماعية بين الأصحاب لا تقوم على روية
وأدب فقال :

مَنْ لِي بِإِنْسَانٍ إِذَا أَغْضِبْتُهُ

وَجْهَلْتُ كَانَ الْحِلْمُ رَدَّ جَوَابِهِ

وَإِذَا طَرَبْتُ إِلَى الْمُدَامِ شَرِبْتُ مِنْ

أَخْلَاقِهِ وَسَكَرْتُ مِنْ آدَابِهِ

وتراه يُصْغِي للحديث بسمعه

وبقلبه ، ولعله أدرى به

✓ ورأى ما يكون بين الأدباء والعلماء من تقاطع ، فجعل الأدب نسباً
يؤلف بين ذويه وأرسل لعلي بن الجهم — صديقه — يقول له من قصيدة :

إِنْ يُكْدِرُ مُطَرَّفُ الْإِخَاءِ فَإِنَّا نَعْدُو وَنَسْرِي فِي إِخَاءٍ تَالِدٍ (١)

أو يختلف ماء الوصال فماؤنا عذبٌ تحدر من غمام واحد

أو يفترق نسبٌ يؤأفُ بيننا أدبٌ أقناه مقام الوالد

✓ وآله أن ينهش الحسد قلوب الناس ، وإن كان فيه بعض الخير للمحسود

إذ ينشر فضله ، فعمد إلى القياس المنطقي فوجد الطيب لا ينتشر عرفه إن لم

تنل منه النار فقال :

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طُوِيَتْ أَتَاحَ لَهَا لِسَانٌ حَسُودٌ

(١) أرى أن لم يكن الإخاء الحديث بين الناس مشعراً ينتهي إلى الخير

فنجن نرجع إلى أخاء قديم صميم .

لولا اشتعال النار فيما جاورتُ ما كان يُعرف طيبُ عرفِ العود
ورأى الدنيا لا تعطي بالشمال حتى تأخذ باليمين ؛ وأنّ دون الخير
شراً كثيراً ، ودون الراحة تعباً متواصلاً ، فليحتمل الانسان المكروه
ليبلغ ما يريد ؛ ثم رأيت في الاغتراب صقال الرجال ، فقال واعتمد على
المقابلة والقياس :

ولكنني لم أحوِ وفراً مجمعاً ففزتُ به إلا بشمل مبدّد
ولم تعطني الأيام نوماً مسكناً ألدُّ به إلا بنوم مشرّد
وطول مقام المرء في الحي محلّق لذيّباجتيه فاغترب تتجدد
فإني رأيت الشمس زيدت محبةً إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد
وهكذا نرى أثر الثقافة ، والعقل ، والتجارب ، في حكمة أبي تمام ؛
وإلى هذه المنابع الثلاثة للحكمة ، شيء آخر نخصه بالذكر وان لم يكن
مستقلاً عن هاتيك الموارد ، هو ترفعه عن الهجاء ، وإرسال الحكمة في
مورد التعريض ، ولقد أبت عليه نفسه أن يهجو بعض من كان يحظى بمدحه ،
فعرّض به في حكمة ما تزال جديدة على الدهر :

إذا جاريت في خلق دنيئاً فأنّت ومن تجاريه سواء
وإنها الحكمة يقولها كل مترفع عن وضع :

رأيتُ الحرّ يجتنب المخازي ويحميه عن الغدر الوفاء
ويرى أن الصبر على الشدائد لا يطول إذ لا بد لكل شدة من
زوال ، فقال :

وما من شدةٍ إلا سيأتي لها من بعد شدتها رخاء

٥ وأما الخير عنده ففي الحياء ، وهو القائل :

يعيش المرء ما استحيا بخيرٍ ويبقى العود ما بقي اللحاء
فلا والله ما في العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء
وينتهي إلى موعظة يستمدها من الدهر وكرم الخلق فيقول :

١٠ إذا لم تحش عاقبة الليالي ولم تستحي فاصنع ما تشاء
ولقد أكثر من الحكمة وأبدع وأرنب ما قاله فيها على المائتين ، وتبعه
في كثير من معانيه شعراء عظام كأبي الطيب والمعري حتى قيل :
«أبو تمام والمتنبى حكيمان ، وإنما الشاعر البحري» ١٠

الفخر :

كان أبو تمام يجد مادة واسعة للفخر بعبقريته ، وأرومته ، وشخصيته ،
وهو ، ككل شاعر ، مسوق لأن يقول شيئاً يقل أو يكثر في تثبيت قيمته
وفرض احترامه ، فكان إذا نظر في شعره وفي أشعار المتقدمين
أدرك الشأو الذي بلغه ، والآفاق التي عجز عنها السابقون ، ولذلك
لما قضى زهيراً كما مر وقال عن قصائده :

يقول من تفرع أسماعه كم ترك الأول للآخر
ويقول عن قصيدة ثانية في مدح الواثق بالله :

جاءتك من نظم اللسان قلادة سمطان فيها اللؤلؤ المكنون
إنسية وحشية كثرت بها حركات أهل الأرض وهي سكون
أحذاكها صنع الضمير يمدّه جفر إذا نضب الكلام معين^(١)

(١) جفر : بئر . أحذاك : أعطاك

وله في اطراء عبقريته تحليق ، من ذلك أن محمد بن الهيثم أعطاه
حلة فلدحه أبو تمام وقال له إنه سيكسوه كسوة أرفع وأخلد :

سوف أكسوك ما يعفني عليها من ثناء كالبرد برد الصناعات
حسن هاتيك في العيون ، وهذا حسنه في القلوب والأسماع
وفي هذا وغيره دليل على إعجابه بعبقريته ، وبأماديحه بوجه أخص ؛
وكان يعطف فخره بأرومته ، على طيء وفيها كرم وشجاعة وشرف ،
فيفتخر بسجايها ، ويباهي برجلها ، ويرتفع بالولادة فيها فيقول :

أنا ابن الذين استرضع الجود فيهم

وسمي فيهم وهو كهل ويافع

سما بني أوس ، في السماح ، وحاتم ،

وزيد القنا ، والأثرمان ، ونافع (١)

نجوم طواليع ، جبال فوارع ،

غوث هواميع ، سيول دوافع

ويفتخر بشخصيته الجبارة فيقول لمحمد بن يزيد الذي تعرض
له بالهجاء :

أطلت روعك حتى صرت لي غرضاً

قد يقدم العير من دعر على الأسد (٢)

(١) رجال من طي مشهورون . (٢) قيل إن حمار الوحش إذا شم
ريح الأسد رمى بنفسه عليه . وفي رواية ثانية أنه قال لابن المعتل :
أقدمت وملك من هجوي على خطر كالعير يقدم من خوف الأسد

الغزل :

وأبو تمام ذو عاطفة كالرجال ، ولكنه صاحب عقل ورصانة للحكماء ،
فغلبت هذه على تلك ، وإذا به في الغزل لا يعد شيئاً إلا أن يقتنص معنى
يقوم على تفكير في مقطوعة صغيرة لا تبلغ القصيد ، فهو يعجبك إذ
تسمع إليه قوله الحكيم :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى

ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يأنفه الفتى

وحنينه أبداً لأول منزل

ولكنك إذا رحت تسأل عن حبيبه وعواطفه وخلجات قلبه ، أورد لك
فهرساً في الزفرات والعبرات لم تجد وراءه عاطفة عاشق ، ولا حنين ولهان ،
ومهما يبدأ بالغزل ويصف من وقوفه في الرسوم ، ويستنطق الآثار والديار ،
ويقلد الماضين في كلام بدوي أو حضري ، فلن تسمع وراء ذلك خفقة فؤاد
ملوع بالهوى ، وقد تكون الأيام شغلته عن الحب ، وقد يكون الغنى والجاه
والرصانة والجد قد صرفته أن يكون بارع الغزل مشهور الأمر فيه ، على أن
شيئاً من حوادثه في الهوى قد عرف ، فاختلط بما روي عن أبي نواس ،
ولن تحتاج إلى كبير عناء للحكم على غزل أبي تمام ، لانه ليس من القوة بحيث ترفع
رتبته عن أن يكون متكلفاً أو مصنوعاً ، ولعل من أحسن ما قال في الغزل قوله :

غدت تستجير الدمع خوف نوى غد

وعاد قتاداً عندها كل مرقد

وأنقذها من غمرة الموت أنه

صدودُ فراق لا صدود تعمد

فأجرى لها الإشفاقُ دمعاً مورداً

من الدم يجري فوق خدِّ مورد

هي البدر يُغنيها توددٌ وجهها

إلى كل من لاقت وإن لم تودد

الهجاء والعتاب :

وقد قيل عن أبي تمام « إنه كان لا يجيب هاجياً ، لأنه كان لا يراه نظيراً ، ولا يشتغل به » أي أنه لا يريد أن يجرّس في المجالات الوضيعة المخزية ، ومع ذلك فنحن نقرأ له شيئاً من السباب والشتائم التي صباها على من هجوه حسداً وظلماً ، كأنه قد ضاق بهم ذرعاً ، ولا نرى له هجاء في غرض سام ؛ ولا في ناحية سياسية ، وقد كان في عصره شعوبيون وخوارج ثأرون ، وكانت الشيع والاهواء تطلق ألسنة الشعراء في العصبية المختلفة ، وقد بعد أبو تمام عن هذا لأن له في كل قطر صديقاً أو أميراً يقصده ، ولأنه لا يريد الاستكثار من الاعداء ، على أنه لم يخل من إظهار شماته وتعريض ، حين قتل الافشين بابك الحرّمي .

وانا لتتساءل لو أن أبا تمام أطلق لسانه العنان ، فإذا عساه أن يقول غير ما نقرأ له من سباب وإفخاش في القول السهل ، على أنه كان يرى الصيانة أفضل في كثير من المواضع ، أو أنه لم يكن ليشغل نفسه ويملاً وقته بقول

إذا صرفه في ما هو خير كان أفضل وأسلم ، فمن أخف هجائه قوله في مساوئ أحدهم :

مساوٍ لو قسمن على الغواني لما جُهنن إلا بالطلاق
ويقول :

دنسٌ تدبر أمره شيمٌ له شُكسٌ يدبر أمرهن اللوم
ومنازلٌ لم تبق فيها ساحةٌ إلا وفيها سائل محروم
وكان يكثر من وصف مهجوه باللوم وخسة الخصال ، وهجاؤه على الجملة
أفضل من غزله من حيث الصنعة وإحسان الصوغ .

ولجانب الهجاء عتاب رقيق لطيف ، يذكر فيه من يبطئ عليه
بالكرم أو بالأمر المراد ، ويغمز من جانب المعائب غمزاً رقيقاً ، وهو غرض
لا بد للشاعر من أن يجري لسانه فيه إذ قد تعرض له في الحياة أمور
تستلزمه ، فمن ذلك قوله :

وأخ لي أملٍ عليه اختلاط الدهر طول التقلب والتعريف
أصلحته لي المروءة حتى أفسدته أستطالة المعروف
ليس جدع الأنوف جدعاً ولكن تيه من تصطفيه جدع الأنوف

رجعته إلى الله تعالى :

ولقد كانت لأبي تمام رجعات إلى الله تعالى ، بعد اعتكار الأيام بالآثام ،
فكان ينظر فيما قدم وأخر ، فيخاف ويرجو ، ويجعل أمامه قول الله تعالى :

« إن الله لا يغفر أن يُشرك به ، ويغفرُ ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشركُ بالله فقد افترى إثماً عظيماً » (النساء ٤٨) ، ويتمثل أمامه قول الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم : « لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنّته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنّته أحد » (رواه مسلم) .
وفي ذلك يقول راجياً خائفاً :

أخاف إلهي ثم أرجو نواله
ولكنّ خوفي قاهرٌ لرجائي
وإني جدير أن أخاف وأتقي
وإن كنت لم أشرك بذي العرش ثانياً
ويقول في التأهب للرحيل والحساب :

تُلَقِّحُ آمالاً وترجو نتائجها
وعُمْرُكَ مما قد ترجيه أقصرُ
وهذا صباح اليوم ينعاك ضوؤه

وليلته تنعاك إن كنت تشعر
تطهّرُ وألحق ذنبك اليوم توبةً
لعلك منه إن تطهّرت تطهر
وشمرٌ فقد أبدى لك الموت وجهه

وليس ينال الفوز إلا المشمرُ

قواعده في النظم

رأينا أبا تمام يحول في آفان الشعر جولات عبقرى صناع ملهم ،
ولقد كانت له طريقة في النظم أجملها للبحر ناصحاً بقوله : «تخير الأوقات
وأنت قليل الهموم ، صفر من الغموم ، واعلم أن العادة في الأوقات ، أن
يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه وقت السحر ، وذلك أن النفس قد
أخذت حظها من الراحة ، وقسطها من النوم ، فإن أردت النسيب فاجعل
اللفظ رقيقاً ، والمعنى رقيقاً ، وأكثر فيه من بياض الصبابة ، وتوقع
الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق . وإذا أخذت في مدح سيد ذى
أيادٍ فاشهر مناقبه ، وأظهر مناسبه ، وأبن معالمه ، وشرف مقامه ، وتقاض
المعاني ، واحذر المجهول منها ، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الزرية ، وكن
كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجسام . وإذا عارضك الضجر
فأرح نفسك ، ولا تعمل إلا وأنت فارغ القلب ، واجعل شهوتك لقول
الشعر الذريعة إلى نظمه ، فإن الشهوة نعم المعين » .

« وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين ، فما استحسنه
العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ، ترشد إن شاء الله تعالى » .

محاسبة أبي تمام بمقاييسه :

إذا كان الناصح بأمر أحق الناس بالتزامه ، فجدير بنا أن نطالب
أبا تمام بما نصح به للبحر ، ولكن النصح في غالب الأحيان لا يقتضي
التמיד بالنصيحة ، لأنها المثل الأعلى ، والبشر يميلون عنه ويتفاوتون في ذلك

كثيراً أو قليلاً ، وعلى هذا فإن أبا تمام قد خرج عن التزام وصيته في أمور :
 منها أنه كان « يتقاضى المعانى » ولكنه لا « يحذر المجهول منها » فقد
 كان أحب شيء إليه أن يأتي بالبعيد الغريب الذى لم يؤلف من المعانى ،
 ويؤثر منها مالا يعرفه الناس ، وهذا مذهب جديد فى معانيه ؛ وقد أداه إلى
 نتائجه الغريبة غير المألوفة كونه كثير التتبع للاستعارات ، والمكنيات ،
 المشخصات والمجسمات منها بوجه أخص ، فمن ذلك قوله :

رقيق حواشي الحلم لو أنَّ حلمه بكفئك ما غاليت في أنه برء
 فجعل الحلم رداءً رقيق الحواشي ؛ وهي صورة غريبة واستعارة عجيبة
 بالنسبة للأدب العربي الذى كان يتخيل الحلم كالجبال ، فقد كان إذا وُصف
 الحلم قيل عنه مثل قول الفرزدق :

أحلامنا تزن الجبال رزانهً وتخالنا جنًا إذا ما نجهل
 ولكن الحضارة التي عاش في ظلالها أبو تمام أخرجته عن الصور
 القاسية إلى الناعمة ، وعن البداوة إلى الحضارة ، فكان هذا الفتح الجديد
 غريباً عن المألوف (١) ؛ ومثله في غرابة الصور والمعنى قوله :

فهو غُضُّ الإِبَاءِ والرأى والحز م ، وغُضُّ النوال ، غُضُّ الشباب
 معنى غُضُّ الإِبَاءِ وغُضُّ الرأى فى المديح ، إلى جانب غُضُّ الشباب
 والنوال ؟

وسنرى أشباه هذا فى ما آخذنه عليه العلماء بالشعر .

ونصح البحتري « ألا يشين شعره بالألفاظ الزرية » ، ولكنه نفسه لم يستطع
 أن يتبع هذه القاعدة لأن المعنى الجيد الذى ينشده ربما لم يستقم له إلا فى

الألفاظ المعيبة، وربما كان المعنى معلقاً بلفظ مستغلق أو مستنكر أو غريب، فمن ذلك قوله يصف المطايا بأن علفها وطعامها في سيرها هو السير والركض فقط :

إِرْقَالُهَا يَعْضِدُهَا ، وَوُسَيْجُهَا سَعْدَانُهَا ، وَذَمِيلُهَا تَنْوُمُهَا
والإرقال والوسيج والذميل أنواع من السير ، واليعضيد والسعدان والتنوم أنواع من التبت .

وربما أوقعه فيه وصنعه في ألفاظ لا تستساغ كهذا الجنس الذي في قوله :

لِيَالَيْنَا بِالرَّقْمَتَيْنِ وَأَهْلِيهَا

سقى العهد منك العهد والعهد والعهد

أراد سقى أيامنا التي عهدناك عليها عهد الوصال ، وعهد اليمين التي حلفنا ، والعهد الأخير هو المطر (١) .

وكان إذا « عارضه الضجر » لم « يرح نفسه » ، وكان يعمل الذهن ، ويجهد النفس حتى تظهر عليه آثار التكلف في المعاني والألفاظ ، فمن ذلك أنه أراد أن يأتي بمثل معنى أبي نواس : « كالدهر فيه شراسة وليان » فأخذ يتقلب يمينا وشمالا كأن الحر قد بلغ منه مبلغه ، ثم قام كأنه قد انطلق من عقاب وقال :

شَرُسْتُ بِلِ لِنْتَ بِلِ قَانَيْتَ ذَاكَ بَذَا

فَأَنْتَ لَا شَكَّ فَيْكَ السَّهْلُ وَالْجَبَلُ (٢)

(١) الموشح ٣١٨ ، ٣٢٣ (٢) قانيت : خلطت ؛ وفي رواية قارنت

وهذا البيت ظاهر التكلف ، ينم عن حال أبي تمام حين نظمه ؛ وقد روي أن اسحاق الموصلي سمعه ينشد من شعره المتكلف فيه فقال له : « يا هذا لقد شددت الشعر على نفسك وما أشد ما تتكبر عليها فيه » (١) .

وربما أفسد معانيه التكلف ، فغمضت لتقديم أو تأخير ، أو عدم إحسان في الصوغ ، بسبب قهر النفس على الشعر كما ترى في قوله :

هَنَّ عَوَادِي يَوْسُفٍ وَصَوَاحِبُهُ

فَعَزَمًا فَقَدِمًا أَدْرَكَ الثَّأَرَ طَالِبُهُ

يريد ان النساء اللواتي عدلنه على سفره - قاصداً عبد الله بن طاهر في خرسان - ليس لهن رأي ، وقدماً صرفن يوسف ، فاتركهن وامض على عزمك

وقوله :

مَسْتَسْلِمٌ لِلَّهِ سَائِسُ أُمَةٍ بِذَوِي تَجْهَضُمُنَا لَهُ اسْتِسْلَامٌ
يَقَالُ تَجْهَضُمُ الْفَحْلَ إِذَا عَلَا أَقْرَانَهُ ، وَبَعِيرٌ جَهْضَمُ الْجَنِينِ أَيْ رَحْبُهَا . ففى البيت تكلف بغرض .

وكثيراً ما يكون تكلفه للصنعة سبباً في فساد معانيه وسخفها كما ترى في تكلف الطباق بقوله :

لِعَمْرِي لَقَدْ حَرَّرْتَ يَوْمَ لَقِيْتَهُ لَوْ أَنَّ الْقَضَاءَ وَحْدَهُ لَمْ يُبَرِّدْ

وهو فوق هذا لم « يعتبر شعره بما سلف من الشعراء الماضين » ولا نظر في ما استحسنه العلماء فقصده ، ولا في ما تركوه ليجتنبه ، وإنما جعل

ذوقه وعبقريته مقياس الاحسان ، ودليلا على الرشد ، فسقط في كثير من
الاماكن؛ اذ متى كان العرب يستسيغون مثل قوله :

أَيَا مَنْ شَفَّنِي فَصَبْرْتُ حَتَّى ظَنَنْتُ بَأَنْ نَفْسِي نَفْسُ كَلْبٍ
او يجيزون لحضري مترف ان يقول مثل كلام البداية الجفاة وهو
يصف ظمية :

تَقْرُو بِأَسْفَلِهِ رُبُولا غَضَّةً وَتَقِيلُ أَعْلَاهُ كِنَاسًا فَوَلَّيْنَا
« اراد ملتفًا ، والانسان يقرو الارض اذا سار فيها ينظر حالها
وامرها ، والرُّبُول جمع رَبَل وهو نبات يصيبه برد الليل ونداه فينبت ،
والـكِنَاس مَوْج للوحش من البقر والظباء تستظل فيه » . (١)

ثم متى كانوا يقبلون ان يترخص في الشعر الحضري رخصة كريهة
فتستعمل « الذ » بدل « الذي » عند شاعر صاحب روية وامهال فيقول :
أَدْنَيْتُ رَحْلِي إِلَى مَدَنٍ مَكَارِمِهِ إِلَى يَهْتَبِلُ الذَّ جَثْتُ اهْتَلُ
او ان يتكلف القافية لا معنى يستفاد كما في قوله :

كالظبية الادماء صافت فارتعت زهر العرار الغض والجشجاثا
« وليس في وصف الظبية بانها ترتعي الجشجاث كبير فائدة ، لان الظبية
انما توصف باحسن احوالها ، كأن يقال انها تعطو الشجر ، لانها تكون
حينئذ رافعة رأسها ، وتوصف بان ذعراً يسيراً قد لحقها ، وأما ان ترتعي
الجشجاث فلا فائدة منه ، وهذا نبات ليس من المراعى التي تؤثر على
غيرها » (٢)

ولست الغاية من هذا ان نستقصي هنا معاييب شعره ، فانها اوسع

من ذلك وامد آفاقاً ، واكثر تنوعاً ، وسنفرد لبعضها باباً خاصاً ، لولا اننا
نحب ان نشير هنا الى انه كان بعيداً عن التزام وصيته ، وان حريته في فنه
كانت اكبر من ان تقيدھا وصية او قاعدة ، وانه لم يكن ليالي اذا استقام
عنده البيت ، ان يستقيم عند غيره ، فهو وحده المقياس الفني ، وعبقريته
اجلّ من ان تخضع لما تواطأ عليه الناس في الفن والادب والمألوف من
الكلام .



آراء الأدباء فيه

اختلفت آراء الأدباء والعلماء في قيمة أبي تمام ، ولا سبيل إلى إحصاء ما جاء به المتقدمون والمتأخرون ، والناظر في مجموع ذلك يستنبط رأيين أحدهما ازدراء شعره ؛ وثانيهما إكباره وإحلاله المحل الأول بين أدباء العربية في قديم الدهر وحديثه ؛ وليس في واحد منهما عدل كامل ولا إنصاف مبرأ ، وأبو تمام كشاعر كبير أجاد وسقط ، وأصاب وأخطأ ، شأن العاقرة ، وليس من الحق أن ننظر إلى حسنة منه فنظن أنه لا ينحدر عن أفق التحويد ، ولا من العدل أن نرى له بعض السقطات فنحسبه لا يرتفع إلى سماء الاحسان ، وننسى بهذا أن للجواد كبوات ، وللمحسن هفوات ؛ وإنما الخير كل الخير أن يوضع الشاعر في محله من الانصاف والعدل ، فلا تشبّهه لزلة ، ولا نتعصب له لإجادة ، وقد مر بنا من القول ما جالونا به آفاق عبقريته ، ومدى صنعته ، ورأينا أن له من الكلام الطيب ما لا يلحقه فيه لاحق ، حتى يسطر به في سجل الخلود ، وسنرى له من ردىء الكلام ما يسقط به ، فهو كسائر الشعراء الكبار ، تعرض له الأوقات التي يرتفع فيها ، والأوقات التي يهوي ، وهو ما بينهما شاعر مجدد مبدع ، إذا افتخرت العربية بشعرائها العظام جعلته في الفوج الأول منهم ؛

سمع شعره عمارة بن عقيل ، حفيد جرير ، وكان شاعراً عالماً باللغة ثقة يأخذ العلماء عنه ، ويكرم مثواه الخلفاء فقال : « إن كان الشعر بجودة اللفظ ، وحسن المعاني ، وأطراد المراد ، واستواء الكلام ، فصاحبكم هذا أشعر الناس ، وإن كان بغيره فلا أدري » . (١)

فهذا مثل المنصف لجيد شعره ، ومثله رأي المعري عنه في رسالة الغفران إذ قال إنه « صاحب طريقة مبتدعة ، ومعان كاللؤلؤ مُستَبَّعة ، يستخرجها من غامض بحار ، ويفض عنها المستغلق من المحار » (١) لكنه يقول في موضع آخر على لسان عنتره بعد أن يسمع شيئاً من شعره المجدد فيه « أما الأصل فعربي ، وأما الفرع فنطق به غبي ، وليس هذا المذهب على ما تعرف قبائل العرب » فيقول محدثه : « إنما ينكر عليه المستعار ، وقد جاءت العارية في أشعار كثير من المتقدمين إلا أنها لا تجتمع كاجتماعها فيما نظمه حبيب » (٢) وقد أعاد المعري رأيه بشعر أبي تمام في اللزوميات فقال :

رأيت عواري الحياة كثيرةً كأن بقاء المرء شعر حبيب
 وذكروا عن جماعه من الشعراء كالبحري وابن الرومي وإبراهيم بن
 الفرج وكان من أعلم الناس بالشعر ، أنهم كانوا إذا ذكروا أبا تمام عظموه ،
 ورفعوا مقداره في الشعر ، حتى يقدموه على أكثر الشعراء ، وكلُّه يقر
 بأستاذيته ، وأنه منه تعلم . وهؤلاء أعلم أهل زمانهم بالشعر وأشعر من بقي
 في أيامهم .

وكان عبد الله بن المعتز يدافع عنه في الحق ، ويميل عليه في الصدق ويقول :
 « ربما رأيت في تقديم بعض أهل الأدب الطائي على غيره من الشعراء
 إفراطاً بيّناً ، فاعلم أنه من أوكد أسباب تأخير بعضهم إياه عن منزلته في
 الشعر ، لما يدعو إليه اللجاج ، فأما قولنا فيه فإنه بلغ غايات الإساءة
 والإحسان ، فكأن شعره قوله :

إن كان وجهك لي تترى محاسنه فإن فعلك بي تترى مساويه
 وقال عنه محمد بن شرف القيرواني : « ... وأما الطائي حبيب ،

فَتَكَلَّفَ إِلَّا أَنَّهُ يَصِيبُ ، وَمُتَّعَبٌ ، لَكِنَّ لَهُ مِنْ الرَّاحَةِ نَصِيبٌ ، وَشَغْلُهُ
 الْمَطَابَقَةُ وَالتَّجْنِيسُ ، جَيِّدٌ ذَلِكَ أَوْ لَيْسَ ؛ جَزَلَ الْمَعَانِي ، مَرَصُوصٌ الْمَبَانِي ،
 مَدَحُهُ وَرِثَاؤُهُ ، لَا غَزْلُهُ وَهَجَاؤُهُ : طَرَفًا نَقِيزُ ، وَخَطْبًا سَمَاءَ وَحَضِيضُ ،
 وَفِي شَعْرِهِ عِلْمٌ جَمٌّ مِنَ النَّسَبِ ، وَخَصْلَةٌ وَافِرَةٌ مِنْ أَيَّامِ الْعَرَبِ ، وَطَارَتْ لَهُ
 أَمْثَالُ ، وَحَفِظَتْ لَهُ أَقْوَالُ « (١) »

وَهَنَّاكَ طَائِفَةٌ تَذْهَبُ فِي الْأَعْجَابِ بِأَبِي تَمَامٍ مَذْهَبًا بَعِيدًا فَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ
 حَازِمٍ الشَّاعِرُ الْبَصْرِيُّ الْمَطْبُوعُ يَقْدِمُهُ فِي الشَّعْرِ وَالْعِلْمِ وَالْفَصَاحَةِ وَيَقُولُ :
 « مَا سَمِعْتُ لِمُتَقَدِّمٍ وَلَا مُخَدَّثٍ يَمِثِلُ ابْتِدَاءَهُ فِي مَرِثَتِهِ :

أَصَمَّ بَكَ النَّاعِي وَإِنْ كَانَ أَسْمَعَا وَأَصْبَحَ مَغْنَى الْجُودِ بَعْدَكَ بَلَقَعَا
 وَلَا يَمِثِلُ قَوْلُهُ فِي الْغَزْلِ :

مَا إِنْ رَأَى الْأَقْوَامُ شَمْسًا قَبْلَهَا أَفْلَتْ فَلَمْ تُعْقِبْهُمْ بِظِلَامٍ
 لَوْ يَقْدِرُونَ مَشَوْا عَلَى وَجَنَاتِهِمْ وَعَيُونُهُمْ فَضْلًا عَنِ الْأَقْدَامِ
 وَيَقُولُ الصَّوَلِيُّ : « مِنْ تَبَجَّرَ شَعْرُ أَبِي تَمَامٍ وَجَدَ كُلَّ مُحْسِنٍ بَعْدَهُ لَائِدًا
 بِهِ ، كَمَا أَنَّ كُلَّ مُحْسِنٍ بَعْدَ بَشَارٍ لَائِدٌ بِبَشَارٍ ، وَمُنْتَسِبٌ إِلَيْهِ فِي أَكْثَرِ
 إِحْسَانِهِ » (٢) .

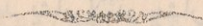
وَيَقُولُ أَبُو الْعَبَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ : « مَا يَهْضُمُ شَعْرَ هَذَا الرَّحْلِ إِلَّا أَحَدُ
 رَجُلَيْنِ : أَمَّا جَاهِلٌ بَعْلَمَ الشَّعْرَ وَمَعْرِفَةُ الْكَلَامِ ، وَأَمَّا عَالِمٌ لَمْ يَتَبَجَّرَ شَعْرَهُ
 وَلَمْ يَسْمَعْهُ » .

وَيُقَابِلُ هَؤُلَاءِ جَمَاعَةٌ سَاءَتْهُمْ عِبْقَرِيَّةُ أَبِي تَمَامٍ فَكَانَ دَعْبِلُ الشَّاعِرِ الْهَجَاءُ
 إِذَا سُئِلَ عَنْهُ قَالَ : « ثَلَاثُ شَعْرِهِ سَرَقَةٌ ، وَثَلَاثَةُ غُثٍّ ، وَثَلَاثَةُ صَالِحٍ » وَكَانَ

يقول : « لم يكن أبو تمام شاعراً وإنما كان خطيباً ، وشعره بالكلام أشبه
منه بالشعر » (١)

وكان دعبل يميل على أبي تمام ولم يدخله في كتابه « كتاب الشعراء »
وقال ابن الأعرابي وقد انشد شعراً لأبي تمام « ان كان هذا شعراً فما
قالته العرب باطل »

وقال أبو حاتم السجستاني : « ما أشبه شعرَ هذا الرجل إلا بثياب
مُصْقَلَاتٍ مُخْلَقَان ، لها روعةٌ وليس لها مُفَسَّش » .
وكان الكاتب الشاعر ابراهيم بن المدبر يتعصب على أبي تمام ويحطه عن
رتبته ، فلاحاه عبد الله بن المعتز وقال له أتقول هذا لمن يقول ... وانشده
شيئاً من جيد شعره .. فكان كما أنما ألقمه حجرأ . (٢)



استاذية أبي تمام

مهما يكن من شأن عبقريته مدحاً أو ذماً ، فإنها أثرت في الشعراء وكانت فتحاً جديداً لهم ، اخذوا طريقتها في الصوغ والاداء ، وأسلوها في الغوص على المعاني ، والانتفاع بمختلف الثقافات والآراء ، وحسبنا أن نلتفت إلى الشعراء من بعده لنرى أى أثر كان له في المتنبي ، الذى تفنن في النظم ، وبرع في الحكمة ، وجود في الوصف ، وأى طابع ظهر في أدب المعري ، وصنعتة المبالغ فيها ، وآرائه الحكيمة ؛ ولا تبعد كثيراً ، فهذا أبو عبادة البحتري وهو عبقرية عربية ، يسلكها أبو تمام في سلك الخلود ، ويطبّعها بطوابع قوية من تأثيره الفني في الصنعة وحسن الاداء ، حتى حار المؤلفون في تقديم أحدهما على الآخر واشتغلت بذلك أفكار العلماء بالشعر .

الموازنة بين أبي تمام والبحتري :

فألف الأمدى كتاب الموازنة بينهما ، وكتب غيره في تأثير الأول بالآخر ؛ والناظر في شعر الشاعرين يجد أبا تمام قد انفرد بأمور أمدى بها العربية كذخيرة عظيمة ، وقد عرفناها من قبل وهي في جملتها تتناول تجديده في الصنعة ، وإغراقه فيها ، وابتكاره للمعاني الرائعة واستنباطه للأفكار العويصة ، واهتمامه بها اهتماماً عظيماً يتضاءل دونه اهتمامه الشديد باللفظ والصوغ وحسن الاداء ، هذا إلى إكثاره من المحسنات : من طباق وجناس واستعارة وكناية ، وإتيانه بالمعاني الفلسفية ، وانتفاعه بالثقافات المتنوعة والمعلومات الكثيرة التي خزنها في صدره ، مع إغراب وتكلف في اللفظ والمعنى في بعض الأحيان .

ويقابل هذا جميعاً عند البحترى حرصه على الصنعة والاداء وحسن
الايراد ، مع تفنن في المحسنات من تجنيس ومطابقة ، وعناية بانتقاء الالفاظ
العذبة ، والعبارات الحلوة ، دون اغراق في طلب المعاني ، وبحسبها ان
تكون معاني صحيحة ، في كلام مستقيم ، جيد النظم ، لا غرابة ولا حوشية
ولا سقوط فيه ، ليقذف بها عن فيض خاطر ، وصفاء طبع .

فاذا كان المرء اميل الى الصنع والغموض والتفكير فابو تمام احب اليه ،
وان كان اميل الى سهولة الكلام وقرب مأخذه وحلاوة اسلوبه ، وكثرة
رونقه ، وظهور معانيه ، فالبحتري آثر عنده ، واذا قيل ان شعر الاخير
شعر الطبع ، وشعر الاول شعر الصنع ، فليس معنى هذا تجريد كل منهما
من مزية الآخر ، وانما هو الوصف الغالب على الرجلين .
وقد اوزن بينهما شيخ الادباء محمد بن يزيد المبرد صاحب الكامل
فقال :

« لابي تمام استخراجات لطيفة ، ومعانٍ طريفة ، لا يقول مثلاً
البحترى ، وهو صحيح الخاطر ، حسن الانزعاج ، وشعر البحتري احسن
استواء ، وابو تمام يقول النادر والبارد ، وهو المذهب الذي كان اعجب الى
الاصمعي . وما اشبهه ابا تمام الالبغائص يخرج الدرر الخشيلة (١) ،
والله ان لابي تمام والبحتري من المحاسن ما لو قيس باكثر شعر الاوائل ما
وجد فيه مثله » . (٢)

وقال البحتري وقد سئل : ايما اشعر انت أو ابو تمام ؟
« ابو تمام اغوص على المعاني ، وانا اقوم بعمود الشعر » وقال ايضاً :
« جيده خير من جيدي ، ورديي خير من رديئه » .

قال ابو بكر الصولي : (٣) « قد صدق البحتري في هذا ؛ جيد ابي تمام

(١) خرز ابيض يشبه اللؤلؤ . (٢) الصولي ٩٧ . (٣) ٦٧

لا يتعلق به احد في زمانه ، وربما اختل لفظه قليلا لا معناه ، والبحري لا يختل . واورد ايضا ^(١) « ولا اعرف احداً بعد ابى تمام اشعر من البحري ، ولا اغضّ كلاماً ، ولا احسن ديباجة ، ولا أتم طبعاً ، وهو مستوي الشعر ، حلو اللفاظ ، مقبول الكلام ، يقع على تقديمه الاجماع ، وهو مع ذلك يلوذ بأبى تمام في معانيه ، فأني دليل على فضل ابى تمام ورياسته يكون أقوى من هذا » ✗ وكان الامام ضياء الدين الموصلی يرى ابا تمام والبحري والتنبی اعظم شعراء العرب ، فهم سلسلة مرتبطة الحلقات سمت في قديم الدهر وحديثه في الشعر وقال عنهم إنهم : « لات الشعر وعُزّاه ومَناته ، الذين ظهرت على ايديهم حسناته ومستحسناته ، وقد حوت اشعارهم غرابة المحدثين الى فصاحة القدماء ، وجمعت بين الامثال السائرة وحكمة الحكماء » . (٢)

وقد عمد الى المقارنة بينهم فذكر لكل خصائصه ، واذا كان هذا الكتاب مخصصاً لابى تمام فان من تمام معرفة الشاعر ان نوازن بينه وبين صاحبيه في حكم واحد ؛ لانجب ان نقطعه اثلاثا ، فاستمع الى الموصلی يحدثك ويقول : « لقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع ، وانفدت شطراً من العمر في المحفوظ منه والمسموع ، فالفيت به بجرأ لا يوقف على ساحله ، وكيف ينتهى الى احصاء قول لم تحص اسماء قائله ، فعند ذلك اقتصرت منه على ما تكثر فوائده ، وتتشعب مقاصده ، ولم اكن ممن اخذ بالتقليد والتسليم ، في اتباع من قصر نظره على الشعر القديم ، اذ المراد من الشعر انما هو ابداع المعنى الشريف ، في اللفظ الجزل واللطيف ، فمقي وجد ذلك فكل مكان خيمت فهو بابل » ثم يذكر اكتفائه في هذا بشعر هؤلاء الثلاثة ويقول :

« اما ابو تمام فانه رب معان ، وصيقل الباب واذهان ، مُشهد له بكل

معنى مبتكر ، لم يمش فيه على اثر ، فهو غير مدافع عن مقام الإغراب ،
الذي برز فيه على الأضراب . . فمن حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضه
وراض فكره برائضه ، اطاعته اعنة الكلام ، وكان قوله في البلاغة ما قالت
حذام . . » .

« واما ابو عبادة البحتري فانه احسن في سبك اللفظ على المعنى ، واراد
ان يشعر ففنى ، ولقد حاز طرفي الرقة والجزالة على الاطلاق ، فيبنا يكون
في شظف نجد ، اذ تشبث بريف العراق ، وسئل ابو الطيب المتنبي عنه وعن
ابي تمام وعن نفسه فقال : « انا وابو تمام حكيمان والشاعر البحتري »
ولعمري انه انصف في حكمه ، واعرب بقوله هذا عن متانة علمه ، فان ابا
عبادة اتى في شعره بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء ، في اللفظ المصوغ من
سلاسة الماء ، فادرك بذلك بعد المرام ، مع قربه الى الأفهام ، وما أقول
الا انه اتى في معانيه باحلاط العالية ، وورق في ديباجة لفظه الى الدرجة
العالية » .

« وأما ابو الطيب المتنبي فانه أراد أن يسلك مسلك أبي تمام ، فقصرت
عنه خطاه ، ولم يعطه الشعر من قيادة ما أعطاه ، لكنه حظي في شعره
بالحكم والأمثال ، واختص بالابداع في وصف مواقف القتال ، ... إذا
خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها ، وأشجع من أبطالها ،
وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها ، حتى تظن الفريقين قد تقابلا ، والسلاحين
قد تواصلوا ، فطريقه في ذلك تضل بسالكه ، وتقوم بعذر تاركه ، ولا شك
أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة ابن حمدان ، فيصف لسانه ، ما أدى
إليه عيانه ، ... » ثم يقول بعد كلام عن المتنبي : « وإني لم أعدل إلى
(هؤلاء الثلاثة) اتفاقاً ، وانما عدلت إليهم نظراً واجتهاداً ، وذلك أتى ووقفت
على أشعار الشعراء قديمها وحديثها ، حتى لم أترك ديواناً لشاعر مفلق يثبت

شعره على المحك ، الا وعرضته على نظري ، فلم أجد أجمع من ديوان أبي تمام
وأبي الطيب للمعاني الدقيقة ، ولا أكثر استخراجاً منها للطيف الأغراض
والمقاصد ؛ ولم أجد أحسن تهذيباً للألفاظ من أبي عباد ، ولا أنفس (١)
ديباجة ، ولا أبهج مسلكاً ، فاخترت حينئذٍ دواوينهم ، لاشتغالها على محاسن
الطرفين من المعاني والألفاظ .

ولما تعرض للكلام على نجوم بني أمية جرير والفرزدق والأخطل قال
إنهم أشعر العرب أولاً وآخرأ ، لأنهم أجادوا في كل ما أتوا به من المعاني
المختلفة ، وأشعر منهم عند ابن الأثير الثلاثة المتأخرون : أبو تمام والبحتر
والمتنبي ، إذ لا يداينهم مدان في طبقة الشعراء ؛ أما أبو تمام والمتنبي فرباً
المعاني ، وأما أبو عباد فرب الألفاظ في ديباجتها وسبكها .

وسئل الشريف الرضي عن هؤلاء الثلاثة فقال : « أما أبو تمام فخطيب
منبر ، وأما البحتر فواصف جؤذر ، وأما المتنبي فقائد عسكر » فوصف
كلأ منهم وأوجز . (٢)

(١) في الأصل : أنقش . المثل السائر ٣٠٣ (٢) ٣١٥

إغارة الأدباء على شعره

تظهر أستاذية أبي تمام في الأدباء والشعراء إذا تعقبناهم في معانيهم وآرائهم ، وطريقة صوغهم ، فانا نجد أثره واضحاً فيهم ، يدلنا على الاقتباس منه والإغارة عليه . على أن هناك أماكن تخفى فيها إغارة المتأخر على المتقدم ، لما يتخذ المتأخر من مدب دقيق إلى شعر أبي تمام ، ولما يكون في الكلام من براعة المأخذ ، حتي لا تظهر معالم الاقتباس ، وإذا كان العثور على السرقة الأدبية عسراً في الشعر ، فانه في النثر أصعب ، ومع هذا فنحن نعلم عن بعض كبار الكتاب أنهم نثروا أبياتاً لأبي تمام في كتابتهم ، من ذلك أن ابراهيم بن العباس الصولي قال « ما اتكلت في مكاتبي إلا على ما يُحِيلُهُ خاطري ، ويَجِيشُ به صدري ، إلا قولي « وصار ما كان يُحِزُّهُمْ يُبْرِزُّهُمْ ، وما كان يَعْقِلُهُمْ يَعْتَقِلُهُمْ » وقولي في رسالة أخرى « فأزله من مَعْقِلٍ إلى عُقَّالٍ ، وبدلوه آجلاً من آمالٍ » فاني الممت في قولي « المَعْقِلِ والعُقَّالِ » بقول أبي تمام :

وإن بين حيطاناً عليه فإنما أولئك عُقَّالاً ته (١) لا معاقله

وقال ضياء الدين الموصلي :

« لا يظفر الرجل بمطالبه شفعاً ، ولا تؤتاه من كل جهة نفعاً ، بل يرى مرعى بلا ماء ، وماء بلا مرعى ، ولذلك كانت النحلة مع الشهدة ، والشوكة مع الوردة » وبعض هذه المعاني مأخوذ من قول أبي تمام :

(١) العُقَّال داء يعرض للخيل كأنه يعقلها (يربطها) عن الجري .

أَرْضُ بَهَا عُشْبُ زَاكِ وَلَيْسَ بَهَا مَاءٌ ، وَأُخْرَى بَهَا مَاءٌ وَلَا عُشْبٌ
وقال : « وقد علم أن لين القول أنجع قبولاً ، وهو من أدب كليم الله
إذ بعثه إلى فرعون رسولاً ، ألا ترى أن الحداء يبلغ من المطايا بلطفه ، ما
لا يبلغه السوط على عنقه » وبعض هذا مأخوذ من قول أبي تمام :

وخذهم بالرقى إن للمهارى يُهَيِّجُهَا عَلَى السَّيْرِ الحِدااءِ
أما غارات الشعراء على شعره فاستقصاؤها أمر يطول ، ومن أظهرها
احتداء البحترى طريقة أبي تمام في وصف الفرس والتخلص منه إلى الهجاء
(وقد مر في الكلام على الوصف)

ومن ذلك أن أبا تمام قال وكأنا فيه طبع البحترى :

يَسْتَنْزِلُ الْأَمَلَ البعيدَ بِبَشْرِهِ بَشْرَى الْمُخِيلَةِ بالرَّبيعِ الْمُغْدِقِ
وكذا السحائبُ قلما تدعو إلى معروفها الرِّوَادَ ما لم تُبْرِقْ
فما زال البحترى يردد هذا المعنى في شعره ويتبع أبا تمام فيه ، ويقع
في أكثره ، فكان مما قال فيه وصار إلى التكلف الذي يعاب عليه أبو تمام :
كانت بشاشتُك الأولى التي أبتدأت

بالبشر ثم اقتبلنا بعدها النِّعما

كالمرنة استوبقتُ أولى مخيلتها

ثم استهلتُ بغُزُرٍ تابعَ الدِّيمَا

قال المرزباني في الموشح : « فسبحان الذي حوّل تكلف أبي تمام إلى

البحترى ، وطبع البحترى إلى أبي تمام . » (١)

ومما سبق اليه ابو تمام قوله :

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ
طُوِيَتْ أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودٍ
فَقَالَ الْبَحْتَرِيُّ : (١)

وَلَنْ تَسْتَبِينَ الدَّهْرَ مَوْضِعَ نِعْمَةٍ
إِذَا أَنْتَ لَمْ تُدَلِّلْ عَلَيْهَا بِحَاسِدٍ
وَقَالَ أَبُو تَمَامَ :

يُخْلُ تَدَيْنَ بِجُلُوهٍ وَبِمَرٍّ
فَكَأَنَّهُ جَزْءٌ مِنَ التَّوْحِيدِ
فَقَالَ الْبَحْتَرِيُّ : (٢)

وَتَدَيْنٌ بِالْبَخْلِ حَتَّى خَلَّتْهُ
فَرَضًا يَدَانِ بِهِ الْإِلَهِ وَيَعْبُدُ
وَمِنْ رَوَائِعِ أَبِي تَمَامَ :

كَحَنٍّ إِلَى الْمَوْتِ حَتَّى ظَنَّ جَاهِلُهُ
بَأَنَّهُ حَنَّ مُشْتَقًّا إِلَى وَطَنِ
فَقَالَ الْبَحْتَرِيُّ : (٣)

تَسْرِعَ حَتَّى قَالَ مَنْ شَهِدَ الْوَعْيَ
لِقَاءَ أَعَادٍ أَمْ لِقَاءَ حَبَائِبِ
وَقَالَ أَبُو تَمَامَ :

هَمَّةٌ تَنْطَحُ النُّجُومَ وَجَدٌ
آلِفٌ لِلْحُضِيضِ فَهُوَ حُضِيضُ
فَقَالَ الْبَحْتَرِيُّ :

مُتَحِيرٌ يَغْدُو بِعِزْمٍ قَائِمٌ فِي كُلِّ نَازِلَةٍ وَجَدَ قَاعِدَ
وَإِذَا رَأَى الْبَحْتَرِيَّ خَاصَّةً عَلَى أَبِي تَمَامَ كَثِيرَةً نَكْتَفِي بِمَا مَرَّ مِنْهَا
وَإِذَا رَأَى الْمُنْتَبِيَّ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ مَعَانِي أَبِي تَمَامَ فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ حَبِيبَ :

لقد ساسنا هذا الزمان سياسة

سدى لم يسهها قبل عبد مجدع

حلت نطف منها لنكس ، وذو الحجا

يداف له سم من العيش منقع

فاخذ المعنى ابو الطيب فوفق فيه وابدع وكان اسير قولا :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله

وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

وقال ابو تمام :

وليس يُجلى الكرب رمح مسد

إذا هو لم يؤنس برأي مسد

فقال ابو الطيب وكان قوله اسهل واسير :

الرأي قبل شجاعة الشجعان

هو أول ، وهي المحل الثاني

وعمد ابو الطيب الى قصيدة ابى تمام التي اولها « أى القلوب عليكم

ليس ينصدع » فصاغ قصيدة على وزنها وقافيتها واولها « غيرى باكثر هذا

ينخدع » ثم اخذ بعض معانيها فمن ذلك قوله :

لم يُسلم الكرّ في الأعقاب مهجته

إن كان أسلمها الأصحاب والشيعة

أخذه من معنى ابى تمام :

ما غاب عنكم من الأقدام أكرمه

في الروع إذ غابت الأنصار والشيعة

وهذه من أوضح السرقات ، إذ نادى على نفسه في سرقة .

وقال أبو تمام :

هو الصنع إن يعجل فنفع ، وإن يرث

فلارث في بعض المواطن أنفع

فأخذ المتنبي معناه وضرب له مثلاً يوضحه فقال مبدعاً (١) :

ومن الخير بطاء سيبك عني

أسرع السحب في المسير الجهم

وكذلك مهد أبو تمام القول الى المتنبي إذ قال هذا :

وجاهل مدّه في جهله ضحكي

حتى أتته يدُ فِرَاسةٍ وفمُ

إذا رأيت نُيوبَ الليث بارزةً

فلا تظنَّ أن الليث يبتسم

وهو من ابى تمام إذ يقول (١) :

قد قُلصتْ شفتاه من حفيظته

فخيل من شدة التعبيس مبتسماً

(١) المثل السائر ٣١٢

وكثير هم الشعراء الذين اغاروا على شعر الطائي غير البحري والمتنبى ،
واذا كان تعقبهم يقتضي كتاباً اوسع فلا اقل من ان نكتفي بالقليل ، فمن
ذلك ان ابا تمام قال :

أدميت باللحظات وجنته فاقصَّ ناظره من القلب
اخذه ابن الرومي فوسعه وقال :

جرحتة العيون فاقصَّ منها بجوى في القلوب دامي الندوب
وقال الطائي :

وإذا المجد كان عوني على المرء تقاضيته بترك التقاضي
فقال ابن الرومي :

وكلت مجدك في اقتضائك حاجتي وكفى به متقاضياً ووكيلاً
وقال الطغرائي بيته المشهور :

أعللُ النفس بالآمال أرقبها ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل
اخذه من قول ابي تمام :

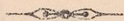
ولولا رجائي واتكالي على الذي توحدني بالصنع كهلاً وناشياً
لما ساغ لي عذب من الماء بارد ولا طاب لي عيش ولا زلت باكياً
وقال عمارة اليميني يمدح بعض الخلفاء :

فهل درى البيت أني بعد فرقته ما سرت من حرم إلا إلى حرم
اخذه من قول ابي تمام مادحا بعض الخلفاء في حجة حجها :

يا من رأى حرمًا يسري إلى حرم طوبى لمستلم يأتي وملتزم
وقال أبو تمام :

ولو لا خلال سننها الشعر ما درى بناة العلى من أين تؤتى المكارم
أخذه ضياء الدين الموصلی فقال : (١)

لولا الكرام وما سنوه من كرم لم يدركائل شعري كيف يمتدح
وانك لتجد بعد هذا ان معاني ابي تمام ، وأسلوبه ، وعبقريته كانت
منهلاً ورده كبار الشعراء والادباء ، فليس غريباً ان يكون استاذاً يعرف
فضله على الدهر .



اغارة الشعراء

لم تكن اغارة الشعراء على شعري تمام امراً عجيباً ، ما دام هو نفسه
يغير على المتقدمين . كما اغير عليه ، فيأخذ معنى البيتين الماضين (ص ٩١)
في تقدم البرق على المطر من ابي نواس اذ يقول :

بِشْرُهُمْ قَبْلَ النِّوَالِ الْلاحِقِ كالبرق يبدو قبل جُودِ دافقِ
والغيثُ يَخْفَى وَقَعُهُ لِلرَّامِقِ ما لم تجدْه بدليلِ البارِقِ

وقال الفرزدق لنصر بن سيار اللبني :

يا نصرُ أَنْتَ فَتَى قَرِيشٍ كُلِّهَا ريشي وريشك من جناحٍ واحدٍ
فقال ابو تمام لعي بن الجهم : (١)

أَوْ يَخْتَلِفُ مَاءُ الْوَصَالِ فَمَاؤُنَا عذبٌ تَحْدَرُ مِنْ غَمَامٍ وَاحِدٍ

وقال بعده البحتري :

وَأَقْلُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَنْنَا نرمي القبائل عن قبيل واحدٍ

وقال كثير صاحب عزة :

إِذَا وَصَلْتُنَا خُلَّةً كِي تَزِيلَهَا أَبَدْنَا وَقَلْنَا الْحَاجِبِيَّةَ أَوَّلُ

أخذه أبوه تمام فقال :

نَقْلُ فَوَادِكْ حَيْثُ شَتَّ مِنَ الْهَوَى ما القلب إلا للحبيب الأول

وقال امرؤ القيس :

لو قد اغتدي والطيرُ في وُكُناتها بمنجرد قيدِ الأوابدِ هيكَل

فقال أبو تمام واعجبه هذا القيد :

لها منظرٌ قيدُ المناظر لم يزل يروح ويغدو في خفارته الحبُّ

وادعى دعبل انه السابق الى معنى يقول فيه :

وإنَّ امرأً أسدى إليَّ بشافعٍ إليه ويرجو الشكر مني لأحق

شفيعك فاشكر في الحوائج إنه يصونك عن مكر وهها وهو يُخلق

فأخذ المعنى أبو تمام وقال واحسن (١) :

فلقيتُ بين يديك حلوَ عطائه ولقيتَ بين يديَّ مرَّ سؤاله

وإذا امرؤ أسدى إليَّ صنيعَةً من جاهه فكأنها من ماله

وقال أبو العتاهية : « رقت حتى كدت ان احسوك »

فأخذه أبو تمام وقال (٢) :

رقت جواهر أجناس الغزال فلو ملّكته لشربتُ الخشف في الكاس

ولكنه استعمل أولاً « الغزال » ثم « الخشف » وهو كرية

وقال الأعشى :

هم يطردون الفقر عن جارهم حتى يرى كالغصن الناضر

(١) الصولي ٦٤ (٢) الموشح ٣١٥

فقال أبو تمام :

مَنْ شَرِدَ الْإِعْدَامَ عَنْ أَوْطَانِهِ بِالْبَذْلِ حَتَّى اسْتَطَرَفَ الْإِعْدَامُ
وقال الشاعر القديم :

بُغَاثُ الطَّيْرِ أَكْثَرُهَا فَرَاخًا وَأُمُّ الصَّقْرِ مَقْلَاتُ زُورٍ
فقال أبو تمام :

أَبَا جَعْفَرٍ إِنْ الْجَهَالَةَ أُمُّهَا وَلَوْ دِ وَأُمُّ الْحِلْمِ جَدَّاءُ حَائِلٌ (١)
وقال أبو تمام في وصف الفرس :

إِمْلِيسُهُ إِمْلِيدُهُ لَوْ عُلِّقَتْ فِي صَهْوَتَيْهِ الْعَيْنُ لَمْ تَتَعَلَّقْ
أعني أن العين لا تتعلق به لأنه أملس أملد ، ولا تصيبه إذ أنها إذا
صعدت فيه صوبت اشفاقاً عليه ، وهو مأخوذ من قول امرئ القيس :
« متى ما ترقَّ العين فيه تسفل » ومعنى امرئ القيس أصبح ، فضلاً عما في
نظم بيت الطائي من تكلف (٢) .

وينسب للسموئل (صموئيل) بن عاديا :

وَإِنْ هُوَ لَمْ يَحْمِلْ عَلَى النَّفْسِ ضِيمَهَا فَلَيْسَ إِلَى حُسْنِ الثَّنَاءِ سَبِيلُ
فاعجب أبا تمام هذا البيت المشتمل على مكارم الأخلاق التي تنشأ عن
ضيم النفس ومشقتها فقال :

(١) الجداء : المنقطعة النسل ؛ والبغاث : طير كالربو اشق لا تصيد شيئاً
واحدتها بغاثه ، والإقلاط أن تضع الناقة واحداً ثم يقلت رحمها فلا يحمل ،
ويقال امرأة مقلاط ونسوة مقاليت ، وهي التي لا يعيش لها ولد أيضاً .

(٢) الموشح ٣١٦

وظلمت نفسك طالباً معروفاً

فعجبت من مظلومة لم تُظلم

ومن إغارات أبي تمام الدقيقة التي لا يُفطن لها إلا بعد التأمل قوله :

فتى مات بين الطعن والضرب ميتة

تقوم مقام النصر إن فاته النصر

وقد دله على هذا المعنى عروة بن الورد من شعراء ديوان « الحماسة »

الذي انتقاء أبو تمام ، وفيه قول عروة :

ومن يك مثلي ذا عيال ومُقْتِراً من المال يطرح نفسه كل مطرح

ليبلغ عذراً أو ينال رغبةً ومبلغُ نفسٍ عذرها مثل منجح

« فجعل عروة اجتهاده في طلب الرزق عذراً يقوم مقام النجاح ، وأبو

تمام جعل الموت في الحرب ، الذي هو غاية اجتهاد المجتهد في لقاء العدو ،

قائماً مقام الانتصار ، وكلا المعنيين واحد ، غير أن اللفظ مختلف ، وهذا

الضرب من سرقات المعاني من أشكالها وأدقها وأغربها وأبعدها مذهباً » (١)

وقد مر بنا قول أبي تمام :

قد قلّصت شفتاه من حفيظته فخيّل من شدة التعبيس مبتسماً

وقد سبقه إلى هذا المعنى عبد السلام بن ربعان المعروف بديك الجن فقال :

تلقَ ليثاً قد قلّصت شفتاه فُرى ضاحكاً لعبس الصيال

وقال أبو تمام :

فلم أمدحك تفخيماً بشعري ولكني مدحت بك المديحا

سبقه حسان فقال في الرسول صلى الله عليه وسلم :

ما أن مدحت محمداً بمقالي لكن مدحت مقالي بمحمد

والمعاني التي أخذها عن غيره كثيرة نجتزئ بما مر منها .

وكان دعبل يقول إن قصيدة أبي تمام في رثاء محمد بن حميد الطوسي

مسروقة معظم أبياتها من قصيدة قالها مكنف أبو ساسى من ولد زهير بن

أبي سلمى يرثي بها ذفاقة العبسي ومطلعها :

أبعد أبي العباس يستعقب الدهر وما بعده للدهر عتبي ولا عذر

فوضع أبو تمام اسم محمد بدل ذفاقة وفيها يقول :

توفيت الآمال بعد محمد وأصبح في شغل عن السفر السفر

وأوردها الصولي وصاحب الموشح (١) وذكر هذا « أن للطائي سرقات

كثيرة أحسن في بعضها وأخطأ في بعضها ، ولما نظرت في الكتاب الذي ألفه

في اختيار الأشعار (يريد الحماسة) وجدته قد طوى أكثر إحسان الشعراء ،

وإنما سرق بعض ذلك فطوى ذكره ، وجعل بعضه عدة يرجع إليها في

وقت حاجته ، ورجاء أن يترك أهل المذاكرة أصول أشعارهم على

وجوهها ، ويقنعوا باختياره لهم ، فتعجب عليهم سرقاته » وقال :

« ولا يعذر الشاعر في سرقة حتى يزيد في إضاعة المعنى ، أو يأتي

بأجزل من الكلام الأول ، أو يسنح له بذلك معنى يفضح به ما تقدمه ، ولا

يفتضح به ، وينظر إلى ما قصده نظر مستغن عنه لا فقير إليه. » (٢)

(١) أخبار أبي تمام ٢٠٠ ، الموشح ٣٢٨ (٢) ٢١٢

قلت : ذلك مما يتحامل فيه المرزباني على أبي تمام ، إذ أوضح أن حبيباً طوى أكثر إحسان الشعراء لإخفائه عن الناس أو لاتخاذة عدة له ، فكان الناس لا يجدون الإحسان ولا يلتبسونه ، في زعمه ، إلا فيما يورده لهم أبو تمام ، أو كأنهم لا يعرفون غير (الحماسة) مرجعاً للمطالعة والتعلم والمدارسة ، أضف إلى هذا أن حبيباً في كثير من إغاراته قد زاد في إضاءة المعنى ، وجزالة القول ، فكان الأصوب أن يقف المرزباني بالقول عند الجملة الأولى بأن أبا تمام قد أحسن في بعض سرقاته وأخطأ في بعضها .

ثم إن إلى جانب هذه السرقات هفوات ومعائب حاسبه عليها العلماء والبصراء بالشعر .



معائب شعره

الناظر في ما تقدم من الكلام على انطلاقه من وصيته الشعرية ، وفي ما آخذه عليه العلماء ، يرى معائب شعره طوائف مختلفة يغلب على كل منها وصف قد لا يقتصر عليه .

— فطائفة منها فاسدة المعاني كقوله :

كَأَنَّ بَنِي نَبَهَانَ يَوْمَ وَفَاتِهِ نَجُومُ سَمَاءٍ خَرَّ مِنْ بَيْنِهَا الْبَدْرُ
اراد ان يمدحه فبهجاه ، لان اهله كانوا خاملين في حياته ، فلما مات
اضاؤوا بموته ، لان الكواكب احسن ما تكون اذا لم يكن معها قمر ،
هـذا الى ما في جرس كلمة (خَرَّ) من البعد عن الذوق الموسيقي في
الشعر ، ومثله قوله :

لَوْ خَرَّ سَيْفٌ مِنَ الْعَيُوقِ مَنْصَلَتَا مَا كَانَ إِلَّا عَلَى هَامَاتِهِمْ يَقَعُ

اراد انهم يحتملون المصائب ، صَبْرٌ عليها ، ولكن ظاهر الكلام يدل
على انه ليس في الدنيا احد اذل من هؤلاء ، فلا يرفع احد سيفه الا قتلهم
من غير ان يضرب به انسان . وقوله :

كَذَا فَلْيَجَلَّ الْخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ الْأَمْرُ

فليس لعين لم يَفِضْ ماؤها عذر

فان عجز البيت لا يشبه صدره في الجودة ، وكان ينبغي على الشاعر ان
يذكر المرثي بمدح ورقة في الشطر الاول ليستقيم معنى الشطر الثاني

ويلائمه ؛ ثم انه لا يقال « كذا فليقتلنا الله » وقد اشرنا الى هذا في الرثاء ؛
ومثله قوله :

تكاد عطاياه يُجَنُّ جنونها إذا لم يعوذها بنعمة طالب
ف قيل لم يجن جنون عطاياء انتظاراً للطلب ؛ الا يبتديء بالجد
فيستريح ؟!

وقوله في مدح الافشين بالشجاعة ووصفه بالتنين حين انهزم بابك امامه :
ولى ولم يظلم وهل ظلم امرؤ حثَّ النجاء وخلفه التنين
ولو انه اجهد نفسه في هجاء الافشين ما كان يزيد على تسميته بالتنين ؛
ومثله قوله :

أعطيت لي دية القتل وليس لي عقل ، ولا حق ، عليك قديم
فقوله « ليس لي عقل » مما ذم به نفسه فيما يتبادر الى الذهن اولاً ،
ولو قال « ليس لي عليك عقل » لزال اللبس ولكن الوزن به لا يستقيم .
— وطائفة منها سخيفة مثل قوله : (١)

أفَعِشْتَ حتى عبتهم قل لي متى فرزنت سرعة ما أرى يا بيدق
قوم إذا اسودَّ الزَّمانُ توضَّحوا منه فغودر وهو منهم أبلق
وقوله :

إذا فقد المفقود من آل مالك تقطع قلبي رحمةً للمكارم
فقطعت القلب هذا من السخف في النظم ، وقالوا إنه من كلام
الخنثيين ، وقوله :

لقد وهب الإمام المال حتى لقد خفنا بأن يهب الخلافه
به عاش السماح وكان دهرأ من الأموات ميتاً في إيفافه
وقال في عبد الحميد بن جبريل :

شكوتُ إلى الزمان نُحولَ جسمي فأرشدني إلى عبد الحميد
وفي هذه القصيدة قوله :

ولا تجعل جوابك فيه لي « لا » فأكتب ما رجوت على الجليل
والمعروف أن المثل يضرب بالكتابة على الماء في الحية . اما الكتابة على
الجليد فتجديد سخيف . وقوله :

كانوا رداء زمانهم فتصدعوا فكأنما لبس الزمان الصوفا
وقوله :

ما زال قلبي منذ علقتَه أعمى من الحرقه ما يبصر
وقوله :

ما زال يهذي بالمكارم والعلا حتى ظننا أنه محوم
وقوله :

أيا من شفي فصبرت حتى ظننت بأن نفسي نفس كلب
وقوله :

كيف يصدُّ الدمعَ عن جريه مَنْ عَيْنُهُ مِنْ جريه مُنخلُ
— ومنها طائفة غريبة التشابيه والاستعارات والكنيات كقوله :

ذعرتها النوى فأسبلت الدم عَ عَلَى الخلد من تلّاع المآقي

فتشبيه المآقي بالتلّاع ينبو عنه التدوق ، قوله :

شاب رأسي وما رأيت مشيب الرُّ رأسٍ إلا من فضل شيب الفؤاد

فشيب الفؤاد من سخيّف الاستعارات . وقوله :

مجدّ رعى تلّعات الدهر وهو فتى حتى غدا الدهر يمشي مشية الهرم

وقوله :

كان الزمان بكم كلباً فغادركم بالسيف والدهر فيكم أشهر الحرم

لا تجعلوا البغي ظهراً أنه جمل من القطيعة يرمى وادي النعم

نظرت في السّير الأولى خلت فإذا

أيّامه أكلت باكورة الأمم

ومن استعاراته المستكرهة قوله :

بلوناك ، أمّا كعبُ عرضك في العلا

فعال ، وأمّا خدّ مالك أسفل

وقوله : « كعب عرضك ، وخذّ مالك » مما يستنكر ومراده أن عرضك

مصون ومالك مبتذل ، ومثله قوله :

لو لم تداركْ مُسنّ الجدي من زمن بالجود والبأس كان المجد قد خرفا

فلاستعارة في المجد المسن ونسبة الحرف اليه ، من قبيح المعاني وكريه

الاستعارات ، ومثله في تجسيم السير وجعلة مرآ في الماء كل والمشرّب وفي تخيل الظلم بعيراً باركاً :

كلوا الصبر مُراً واشربوه فإنكم أثرتُم بعير الظلم والظلم بارك
فهذا من أقبح الكلام . ويستنكر قوله في المجاز :

لبستُ سواه أقواماً فكانوا كما أغنى التميمُ بالصعيد
ومن قبيح ما سمع من تشبيهاته قوله :

وتقاسم الناس السخاء مُجَزَّأً وذهبت أنت برسه وسنامه
وتركت للناس الإهاب وما بقي من فرثه وعروقه وعظامه
والقبح ظاهر في بيته الثاني وإنما أراد معنى ليس بطائل : هو أن يقول
عن الممدوح أنه ذهب بالأعلى وترك للناس الأدنى .

— ومنها طائفة تقوم على المبالغات الشديدة كقوله :

من الغيدلو أن الخلاخل صوّرت لها وشُحاً جارت عليها الخلاخل

فإن الخلاخل ليس وشاحاً ، قبل كل شيء ، ثم أن هذا الجسم الذي يتخذ
الخلاخل وشاحاً هو أشبه بجسم الجعل ، ولكن الشاعر بالغ في وصف
الجسم بالنحول والرقّة .

وقال :

ما كنت أحسب أن الدهر يُمهلني حتى أرى أحداً يهجوهُ لا أحدٌ
فبالغ في تصغيره حتى جعله (لا أحداً) ، وكيف يكون « لا أحدٌ »
يهجو أحداً ؟ ومع ذلك فهو في باب التحقير لا بأس به .

— وطائفة منها سيئة الصنعة ، من ذلك أبيات له قبيحة مستكرهة

الجناس كقوله :

وأهل موقان إذ ما قوا فلا وزرٌ أنجاهم منك في الهيجا ولا سئدُ
وقوله :

قَرَّتْ بقرآنَ عَيْنُ الدينِ وانشترتْ
بالأشترين عيون الشرك فاصطلما (١)
وقوله :

خَشْنَتْ عليه اخت بني خشين وأنجح فيك قول العاذلينِ
— ومنها طائفة كثيرة الغريب ظاهرة التكلف كقوله :
كان في الأَجْفَلِ وفي النَّقَرَى عُرٌ فُكْ نَضَرَ العموم نَضَرَ الواحد
يقال دعاهم الجفلى ، إذا دعاهم كلهم فأجفلوا ؛ ويقال دعاهم النقرى إذا
دعاهم واحداً واحداً ؛ وهذا مستكره في الكلام من البدوي فكيف من
ابن الحضارة ؛ وكقوله :

قدك اتَّسَبُ أَربيتَ في الغُلَواءِ كم تعذلون وأنتم سُجْراني (٢)
وقوله :

يقود نواصيها جَذِيلُ مشارق إذا آبه هُمُّ عَذِيقُ مَغَارِبِ
عنى انه كثير الأسفار ، وأراد قول القائل : انا جذيلها المحكك ،
وعذيقها المرَّجَب (٣) .

(١) الاشران مالك بن الحارث النخعي الشاعر التابعي وابنه ابراهيم
(دلائل الإعجاز للجرجاني ٤٠٢) . (٢) السجير : الأنيس ، وأرييت :
زدت ، واتَّسَبُ : استحيي ، وقُدْكَ : حسبك . (٣) الجذيل : عود صغير
ينصب للابل الجربى لتحثك به ؛ والعذيق : غصن صغير ذو شعب ، ورجَّب
النخلة : جعل لها ما تعتمد عليه . والمقصود بالمثل أنه أهلٌ للعظام .

— ومما عابه الشعراء من شعره معاذلته كما في قوله :

إلى خالد راحت بنا أرحبية مراقفها من عن كراكرها نكب

فقوله « من عن كراكرها » من المعازلة الثقيلة ، وله معاذلات أثقل عابها الامام الموصلي وقال إن قلع الأسنان دونها (١) .

— ومن المأخذ عليه : تساهله ببعض الضرورات الشعرية الثقيلة كوصل همزة القطع في (أجله) من قوله :

فأصبح يلقاني الزمان من أجله بإعظام مولود ورأفة والد

— ومنها مطالع سيئة كقبح ابتدائه في المديح وقوله :

تجرع أسي قد أقفر الجرع الفرد

ودع حسي عين يحتلب ماءها الوجد

وابتدائه في « قدك اتئب أرييت في الغلواء » وقوله : « كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر » ولا يقال « كذا فليكن » إلا في السرور كما مر ؛ وقيل إن مطلع القصيدة بيت قبل هذا هو :

حرام لعين أن يجف لها شفر وأن تطعم التغميض ما امتع الدهر

— ومنها ما عابوه من الحشو بكلمة (لعمري) في قوله الذم يستقيم المعنى بدونها :

أقرّوا لعمري لحكم السيوف وكانت أحق بفصل القضاء

(١) انظر في الديوان مثلاً ص ٩٣ ، ٩٤

— ومنها طائفة خالف فيها مألوف الناس في معانيهم فهم مثلاً يرتفعون بمعانيهم من الدون إلى الأعلى ، ولكن أبا تمام يخاف ذلك ويقول :
 خلُق كالمدام أو كرضاب المسك أو كالعير أو كالمُلاب
 فوقع من الأعلى إلى الأدنى : من الحمر إلى الزعفران .
 ومدح فقال :

وكن كريماً تجد كريماً تحظى به يا ابا المغيث
 وإنما يقال « كن كريماً » للئيم لالـكـريم ، فهجاء من حيث يريد مدحه ؛
 ومثل ذلك قوله :

تروح علينا كل يوم وتغتدي خطوب يكاد الدهر منهن يُصرع
 وقد تساءلوا كيف يصرع الدهر ، ومثله قوله :

ولين لي دهري باتباع جوده فكدت للين الدهر أن أعقد الدهر
 فقالوا : كيف يعقد الدهر ؟ وقال :

لم تُسقَ بعد الهوى ماءً على ظمأ

كـمـاء قافيةٍ يستقيكه فهم

فما هذه القافية التي يروي ماؤها باستعارة غير مألوفة ؟

— وعيب عليه قليل من الأخطاء في اللغة كقوله :

بالقائم الثامن المستخلف أطادت

قواعدُ الملك ممتداً لها الطول

وأخطأ في أطادت والصواب اتطدت لأن الأصل وطد يطرطد مثل وعد يعد ، فإذا بني افتعل على طريق الابدال منها قلت اتعد ومثلها اتطد . وانتقد

عليه قوله :

لك هضبة الحلم التي لو وازنت

أجأً إذن ثقلت وكان خفيفاً

وحلاوة الشيم التي لو مازجت

خلق الزمان القدم عاد ظريفاً

فاستعمل الظرف للخلق، وهو من صفات النطق، وعد ذلك جهلاً بمعرفة أصلها في وضع اللغة؛ وليس هذا عندنا بشيء، وليس بشيء أيضاً ما انتقد عليه به من أنه كان يأخذ بعض معانيه من أقوال الناس حتى العامة منهم، فتمد زعموا أنه نظم قصيدة انتهى فيها إلى قوله :

يرى أقبح الأشياء أوبة آمل

كسته يد المأمول حلة خائب

ثم قال : وأحسن من نور تفتحه الصبا ... ووقف ... وإذ سائل يسأل على الباب ويقول : من بياض عطاياكم في سواد مطالبنا ... فأتى أبو تمام البيت بقوله ... بياض العطايا في سواد المطالب .

وبعد فلسنا هنا في موضع الاستقصاء لما آخذ عليه البصراء بالشعر ، لولا الرغبة في عرض فكرة عن المجالات التي عشر فيها ، والمقاييس التي حوسب بها ، فنكتفي بما مر ، ونحن نذكر أن لا بد للمكثّر من العثار ، وإن للجواد كبوات ، وللسيوف نبوات ؛ وسقطاته على كثرتها لا تحطه عن مرتبة العبقرية والتجويد والاحسان ، وفيها ما يغفر الزلل ، ويُتجاوز به عن الخطأ .

وإذا تعقب أحمد بن عبيد الله القطريلي معائب أبي تمام بكتابه ، أو دافع

المرزوقي عنه بكتاب آخر ، أو تصدى له ابن الأثير والمرزبانى وغيرهما فى كتابيهما ، فان أحداً منهم لم ينكر تخليق أبى تمام فى أجواء من الشعر لم يسبق إليها ، فان أحسن فتلك مظاهر خلوده ، وان أخطأ فقديماً كان الخطأ من طبع الإنسان .

وإذا نسب إليه مانسب مع غموض المعاني ودقتها ، وكثرة ما يورده مما يحتاج الى استنباط وشرح واستخراج (١) فعلينا أن نذكر دائماً ما قال المعرى فى (ذكرى حبيب) : « انما اغلق شعر الطائي لانه لم يؤثر عنه فتناقلته الضعفة من الرواة ، والجهلة من الناسخين ، فبدلوا الحركة وغيروا بعض الاحرف بسوء التصحيف » (٢) وعلى رغم كل ماتقدم فابو تمام بلا شك من أفضل الممثل التي تصور ربيع الفكر العربي ، ومقدرته على الازدهار والإثمار ؛ (٣) انه شاعر الاضواء والألوان ، شاعر الزخرف والتنميق والتصوير ، وزخرفه قبل كل شيء فكر وفلسفة ، وكشف عن حقائق الحياة فى أعماقها وأغوارها .

(١) انظر الموازنة للأمدى (٢) كشف الظنون ١ - ٥٠١ (٣) انظر

ديوانه وصفاة

كان ديوان شعره غير مرتب حتى جمعه ابو بكر الصولي (المتوفى سنة ٣٣٥ هـ) ورتبه على الحروف ثم جمعه علي بن حمزة الاصهاني ولم يرتبه على الحروف بل على الانواع . وقد شرحه أبو زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي المتوفى سنة ٥٠٢ هـ ، وله عليه أيضاً شرح مختصر ، وشرحه كل من حسين بن محمد الرافعي المعروف بالخالع (٣٨٠ هـ) وأبي الريحان محمد بن أحمد الخوازمي (٤٤٠ هـ) وأبي البركات ابن المستوفى مبارك بن أحمد الاربلي في عشر مجلدات (٦٣٧ هـ) وفسره أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى (٣٧٠ هـ) وانتصر لأبي تمام ودافع عن شعره أبو علي أحمد بن محمد المرزوقي في كتابه (الانتصار من ظلمة أبي تمام) . واختصر الديوان ابو العلاء المعري (٤٤٩ هـ) وشرحه وسماه (ذكرى حبيب^(١)) وفي بعض الروايات أنه فسر شعر أبي تمام في ستين كراسة . وشرح بعضه الصولي ، ولكن الشروح كلها لم تصل إلينا ، وما وصل لم يف بالمراد ، وطبع في بيروت سنة ١٨٨٩ م ، وطبعه محي الدين الخياط (سنة ١٩٠٥ م — ١٣٢٣ هـ) في طبعة مشرقة وفيه ثمانية ابواب ، معظمها في المديح الذي تضمن كثيراً من الحكم والامثال والابداع ، واستنفد هذا الباب ثلثي الديوان وقد ضم

(١) كما فعل بديوان البحترى وسماه (عبث الوليد) وديوان المتنبي وسماه (معجز أحمد) ، وتكلم على غريب اشعارهم ومعانيها وما أخذهم من غيرهم وما أخذ عليهم وتولى الانتصار لهم والنقد في بعض المواضع والتوجيه في اماكن لخطئهم (ابن خلكان ٤١/١)

اقساماً للثناء ، والمعانيات ، والوصف ، والغزل ، والفخر ، والزهد ،
وانتهى إلى باب الهجاء فنشر « ما لا يمس بالآداب » وأغفل سواء ؛ وقد
شرح الخياط بعض الألفاظ الغامضة شرحاً لغوياً موجزاً . وطبع الديوان
مصطفى وهبي عام (١٨٧٥ م — ١٢٩٢ هـ) طبعة لعلمها أتم الطبعات
ولكنها على الورق الأصفر .

وطبع ملحم ابراهيم الاسود قسماً معنياً به من الديوان عام (١٩٢٨ م —
١٣٤٧ هـ) مع شرح موجز ، وهو لا يزال بحاجة الى عناية اشد انتباهاً
واكثر صبراً .

اما (حماسة أبي تمام) ففيها ما اختاره من الشعر الجيد يوم حبسه
التلج بهمذان ، وقد طبعها في مصر محمود توفيق سنة ١٣٣٥ هـ —
١٩١٧ م ، مع شرح موجز . بعد ان طبعها المستشرق الألماني فريتاغ
بشرح التبريزي وبترجمة لاتينية ١٨١٩ م وقد بدأها بباب الحماسة ، وهو
أطولها ، ولذلك أطلق على مختاراته كلها اسم (الحماسة) ثم ذكر ابوابها في
الثناء ، والأدب ، والنسيب ، والهجاء ، والاضياف ، والمديح ، والصفات ،
والسير ، والنعاس ، والمُلح . وضم النساء ؛ وقد عني بها المتقدمون
فشرحها التبريزي والعسكري والمعري وابن جني والآمدي والصولي
وغيرهم ، وذكر عن التبريزي قوله « إن أبا تمام كان في جمعها أشعر
منه في شعره » وقد سار على غرارها البحتري وابن فارس في اختيار
منتخبات سميت بالحماسة أيضاً ؛ وطبعت حماسة الأول في بيروت
بعد أن نشرها مرغوليوث ، وقلد أبا تمام في حماسته أيضاً الخالديان في
« حماسة شعر المحدثين » وابو هلال العسكري في « الحماسة العسكرية »
وابو السعادات هبة الله بن الشجري العلوي (٥٤٢ هـ) في حماسته المعروفة
« بمختارات ابن الشجري » وصدر الدين علي بن أبي الفرج البصري في
« الحماسة البصرية » (٥٦٤٧ هـ) .

ولكل من علي بن الحسن المعروف بشميم الحلي (٦٠١هـ) وابي الحجاج
يوسف بن محمد الاندلسي الياسي (٦٥٣هـ) ، والاعلم الشنتمري (٤٧٦هـ)
(حماسة) أيضاً هي مما أختاروه من أشعار العرب.

وللمعري «حماسة ازراح» وهو عشر كرايس في ذم الخمر خاصة ،
وقيل ان له شرحاً لبعض الحماسة الرياشية في أربعين كراسة .

وللسيوطي «حماسة» في تفسير الألفاظ المتداولة ؛ وهذه الثروة العلمية
الأدبية ما تزال في ذمة الايام .



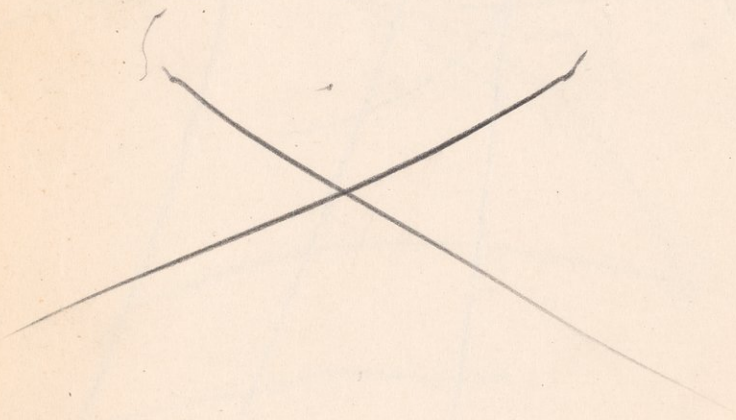
بعض المراجع المعتمد عليها في هذه الدراسة

- أخبار أبي تمام : لأبي بكر الصولي . ط - القاهرة $\frac{51356}{1937 م}$
- أسرار البلاغة : لعبد القاهر الجرجاني . ط - القاهرة $\frac{51344}{1925 م}$
- أعلام الكلام : لمحمد بن شرف القيرواني . ط - القاهرة $\frac{51342}{1926 م}$
- الأغاني : للأصفهاني . ط - القاهرة ١٣٠٣ (قديمة)
- دلائل الإعجاز : لعبد القاهر الجرجاني . ط - القاهرة ١٣٣١ هـ
- ديوان أبي تمام : ط - بيروت ١٩٠٥ م ، القاهرة ١٩٢٨ م ، ١٢٩٢ هـ
- رسالة الغفران : للمعري . ط - القاهرة $\frac{51325}{1907 م}$
- الصناعتان : لأبي هلال العسكري . ط - القاهرة ؟
- الفن ومذاهبه في الشعر العربي : لشوقي ضيف $\frac{51362}{1943 م}$
- المفهرست : لابن النديم . ط - القاهرة ١٣٤٨
- قراضة الذهب : للحسن بن رشيق القيرواني . ط - القاهرة $\frac{51344}{1926 م}$
- كشف الظنون : لملا كاتب جلي . ط - دار السعادة ١٣١٠
- المثل السائر ؛ لضياء الدين ابن الأثير . ط - القاهرة ١٣١٢
- معجم الأدباء : لياقوت . ط - القاهرة $\frac{51357}{1938 م}$
- الموازنة : للحسن بن بشر الأمدي . ط - القاهرة $\frac{51363}{1942 م}$
- الموشح : للمرزباني . ط - القاهرة ١٣٤٣
- وفيات الأعيان : لابن خلكان - ط - القاهرة ١٣٩٩

املاک

۱۱ بجای کانٹن انٹار ۱۹۷۹

~~دیس کی ملکیت
دہشت لٹا اندیشہ~~

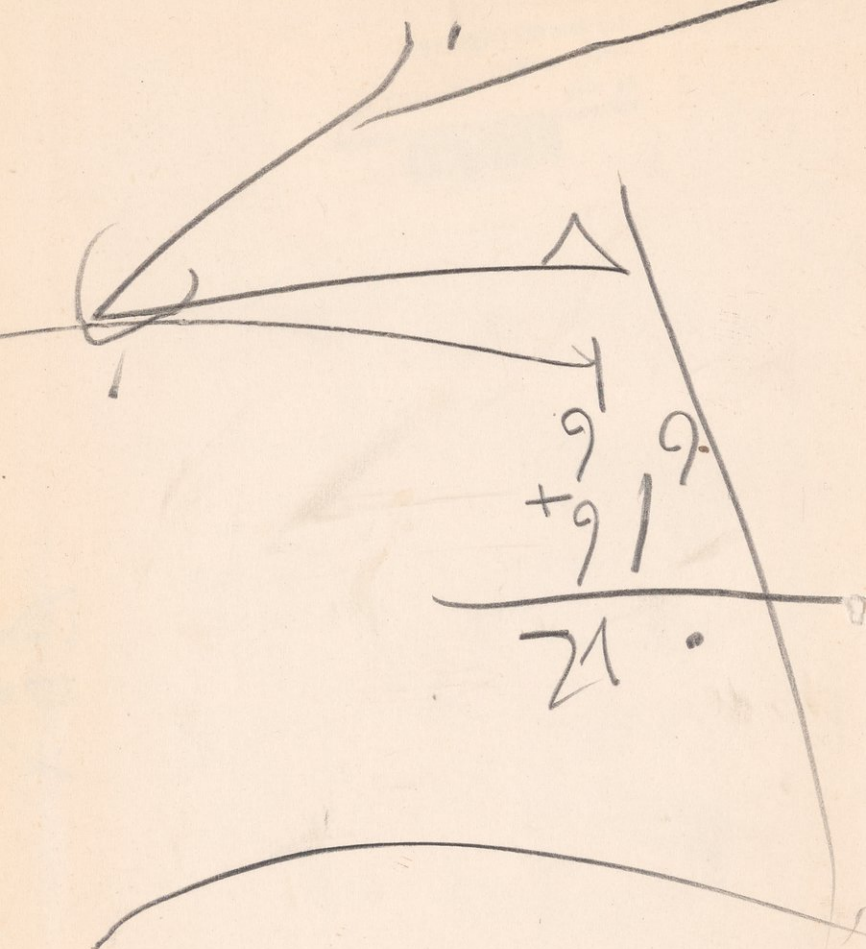


خود

اولاد

۱
کتابت ۱۹۵۹

The page contains handwritten Persian text at the top, which is partially obscured by heavy, dark ink scribbles. The visible text includes 'خود' (self) and 'اولاد' (children) underlined, followed by 'کتابت ۱۹۵۹' (written 1959). There are also some smaller, less legible marks and a small '۱' on the left side. The bottom of the page is mostly blank with a few stray lines.



$$\begin{array}{r} 91 \\ + 91 \\ \hline 21 \end{array}$$

DATE DUE

~~1 FEB 1979~~

JAFET LIB.

~~25 JAN 1978~~

J. Lib.
~~8 JUL 1982~~

JAFET LIB.
16 JUN 2007

J. LIB.

~~16 FEB 1979~~

JAFET LIB.

~~11 MAY 1993~~

Circulation Dept. 1

~~JAFET LIB.~~

~~2 APR 1984~~

J. LIB.

~~15 FEB 1984~~

JAFET LIB.
05 FEB 2001
Circulation Dept.

892.70:A158YsuA:c.1

سلطان، جميل

ابو تمام

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01039422

892.701

A158YsuA

892.71
A158YsuA